٥٩١
ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة

ذكر مُلك وزير الخليفة هَمَذان وغيرها من بلاد العجم

قد ذكرنا مُلك مؤيّد الدّين بن القصّاب بلاد خوزستان، فلمّا ملكها سار منها إلى مَيسان[١] من أعمال خُوزستان، فوصل إليه قتلغ إينانج بن البهلوان، صاحب البلاد، وقد تقدّم ذِكر تغلّب خُوارزم شاه عليها، ومعه جماعة من الأمراء، فأكرمه وزير الخليفة وأحسن إليه.

وكان سبب مجيئه أنّه جرى بينه وبين عسكر خُوارزم شاه ومقدّمهم مَياجق مصافّ عند زَنْجَان[٢]، واقتتلوا، فانهزم قتلغ إينانج وعسكره، وقصد عسكر الخليفة متلجئاً إلى مؤيّد الدّين الوزير، فأعطاه الوزير الخيل والخيام وغير ذلك ممّا يحتاج إليه، وخلع عليه وعلى مَن معه من الأمراء، ورحلوا إلى كَرماشاهان.

ورحل منها إلى هَمذان، وكان بها ولد خُوارزم شاه ومياجق والعسكر الذي معهما، فلمّا قاربهم عسكر الخليفة فارقها الخوارزميّون وتوجّهوا إلى الرَّيّ، واستوى الوزير على هَمَذان في شوّال من هذه السنة، ثمّ رحل هو وقتلغ إينانج[٣] خلفهم، فاستولوا على كلّ بلد جازوا به منها: خَرقان، ومَزْدَغَان، وسَاوة، وآوة[٤]، وساروا إلى الرَّيّ، ففارقها الخُوارزميون إلى خُوار الرَّيّ، فسيّر الوزير خلفهم عسكراً، ففارقها الخُوارزميّون إلى دَامَغَانَ، وبِسطام، وجُرجَان، فعاد عسكر الخليفة إلى الرَّيّ فأقاموا بها؛ فاتّفق قتلغ إينانج ومَن معه من الأمراء على الخلاف على الوزير وعسكر الخليفة

---

(١) في الباريسية: «دسار».
(٢) في طبعة ١٨٤٧ ـ ج ١/ ١٧٠ «الجان».
(٣) في تاريخ الإسلام: «ختلغ إنج».
(٤) في (أ): «واية».

لأنّهم رأوا البلاد قد خلت من عسكر خُوارزم شاه، فطمعوا فيها، فدخلوا الرَّيّ، فحصرها وزير الخليفة، ففارقها قتلغ إينانج، وملكها الوزير، ونهبها العسكر، فأمر الوزير بالنداء بالكفّ عن النهب.

وسار قتلغ إينانج ومَن معه من الأمراء إلى مدينة آوه[1] وبها شِحنة الوزير، فمنعهم من دخولها، فساروا عنها، ورحل الوزير في أثرهم نحو هَمذان، فبلغه وهو في الطريق أنّ قتلغ إينانج قد اجتمع معه عسكر، وقصد مدينة كَرَجَ، وقد نزل على دَرَبَنْد هناك، فطلبهم الوزير، فلمّا قاربهم التقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم قتلغ إينانج ونجا بنفسه، ورحل الوزير من موضع المصافّ إلى همذان، فنزل بظاهرها، فأقام نحو ثلاثة أشهر، فوصله رسول خُوارزم شاه تكش، وكان قد قصدهم منكراً أخذه البلاد من عسكره، ويطلب إعادتها، وتقرير قواعد الصلح، فلم يُجِب الوزير إلى ذلك، فسار خُوارزم شاه مُجِدّاً إلى همذان.

وكان الوزير مؤيّد الدّين [بن] القصّاب قد تُوفّي في أوائل شعبان، فوقع بينه وبين عسكر الخليفة مصافّ، نصف شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، فقُتل بينهم كثير من العسكرين، وانهزم عسكر الخليفة، وغنم الخُوارزميّون منهم شيئاً كثيراً، وملك خُوارزم شاه هَمَذان، ونُبش الوزير من قبره وقطع رأسه وسيّره إلى خُوارزم، وأظهر أنّه قتله في المعركة؛ ثمّ إنّ خُوارزم شاه أتاه من خُراسان ما أوجب أن يعود إليها، فترك البلاد وعاد إلى خُراسان[2].

ذكر غزو [ابن] عبد المؤمن الفرنج بالأندلس

في هذه السنة، في شعبان، غزا أبو يوسف يعقوب[3] بن عبد المؤمن، صاحب بلاد المغرب والأندلس، بلاد الفرنج بالأندلس؛ وسبب ذلك أن ألْفُنْش[4] ملك الفِرَنج بها، ومقرّ مُلكه مدينة طُلَيْطُلة، كتب إلى يعقوب كتاباً نُسخته: «باسمك اللّهمّ فاطرِ السمواتِ والأرض؛ أمّا بعد أيّها الأمير، فإنّه لا يخفى على كلّ ذي عقلٍ لازب، ولا ذي لُبّ وذكاءٍ ثاقب، أنّك أمير المِلّة الحنيفيّة، كما أنا أمير المِلّة النصرانيّة، وأنّك

---

(١) في (أ): «ابة».
(٢) مرآة الزمان ج ٨، ق ٢/٤٤٥، تاريخ الإسلام (٥٩١ ـ ٦٠٠هـ.) ص ٢، ٣.
(٣) في (ب): «يعقوب بن يوسف بن».
(٤) هو ألفونس الثامن.

مَن[1] لا يخفى عليه[2] ما هم عليه رؤساء الأندلس من التّخاذل والتّواكل، وإهمال الرعيّة، واشتمالهم على الراحات، وأنا أسومهم الخسف[3] وأُخلي الدّيار، وأسبي الذّراري، وأُمثّل بالكهول، وأقتل الشباب[4]، ولا عُذر لك في التّخلّف عن نُصرتهم، وقد أمكنتْك يدُ[5] القُدرة، وأنتم تعتقدون أنّ الله فرض عليكم قتال عشرةٍ منّا بواحدٍ منكم، والآن خفّف الله عنكم، وعلم أنّ فيكم ضعفاً، فقد فرض عليكم قتال اثنين منّا بواحدٍ منكم، ونحن الآن نقاتل عدداً منكم بواحدٍ منّا، ولا تقدرون دفاعاً، ولا تستطيعون امتناعاً.

ثمّ حُكي لي عنك أنّك أخذتَ في الاحتفال، وأشرفتَ على ربوة القتال، وتُمطل نفسك عاماً بعد عام، تُقدمّ رِجلاً وتؤخّر أخرى، ولا أدري الجُبْن أبطأ بك أم التّكذيب بما أُنزل[6] عليك.

ثمّ حُكي لي عنك أنّك لا تجد سبيلاً للحرب لعلّك[7] ما يسوغ لك التّقحُم فيها، فها أنا أقول لك ما فيه الرّاحة، وأعتذر عنك، ولك أن توافيني[8] بالعهود والمواثيق والأيمان أن تتوجّه بجملة مَن عندك[9] في المراكب والشواني، وأجوز إليك بجملتي، وأبارزك في أعزّ الأماكن عندك، فإن كانت لك فغنيمة عظيمة جاءت إليك، وهديّة مَثُلَت بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحققتُ إمارة الملّتين[10]، والتّقدّم على الفئتين، والله يسهّل الإرادة، ويوفّق[11] السعادة بمنّه لا ربّ غيره، ولا خيرَ إلاّ خيره»[12].

---

(١) «من» ليست في نهاية الأرب ٢٤/ ٣٣٢.

(٢) في نهاية الأرب: «عليك».

(٣) في نهاية الأرب: «أسومهم سوء الخسف».

(٤) في (أ): «الشبان».

(٥) في نهاية الأرب: «أمكنتك منهم القدرة».

(٦) في الأوربية: «الزل».

(٧) في نهاية الأرب: «سبيلاً إلى جواز البحر لعلّة».

(٨) في الأوربية: «توفيني» ومثلها في: نهاية الأرب ٢٤/ ٣٣٣.

(٩) في الأنيس المطرب لابن أبي زرع، والاستقصا للناصري، ونهاية الأرب للنويري: «من عبيدك».

(١٠) في نهاية الأرب، وغيره: «المسلمين».

(١١) في نهاية الأرب: «ويقرّب».

(١٢) أنظر النص في مرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٤٤٦، ٤٤٧، والمختار من تاريخ ابن الجزري (حوادث =

فلمّا وصل كتابه وقرأه يعقوب كتب في أعلاه هذه الآية **﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاَ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾**[(1)] وأعاده إليه، وجمع العساكر العظيمة من المسلمين وعبر المجاز إلى الأندلس.

وقيل: كان سبب عبوره إلى الأندلس أنّ يعقوب لمّا قاتل الفرنج سنة ستّ وثمانين [وخمسمائة] وصالحهم، بقي طائفة من الفرنج لم ترضَ الصلح، كما ذكرناه، فلمّا كان الآن جمعت تلك الطائفة جمعاً من الفرنج، وخرجوا إلى بلاد الإسلام، فقتلوا وسبوا وغنموا وأسروا، وعاثوا فيها عيثاً شديداً، فانتهى ذلك[(2)] إلى يعقوب، فجمع العساكر، وعبر المجاز إلى الأندلس في جيش يضيق عنه الفضاء، فسمعت الفرنج بذلك، فجمعت قاصيهم ودانيهم، وأقبلوا إليه مُجِدّين على قتاله، واثقين بالظَّفَر لكثرتهم، فالتقوا، تاسع شعبان، شماليّ قُرطُبَة عند قلعة رِياح[(3)]، بمكان يُعرف بمرج الحديد، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فكانت الدّائرة أولاً على المسلمين، ثمّ عادت على الفرنج، فانهزموا أقبح هزيمة وانتصر المسلمون عليهم **﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**[(4)].

وكان عدد من قُتل من الفرنج مائة ألف وستّة وأربعين ألفاً، وأُسر ثلاثة عشر ألفاً، وغنم المسلمون منهم شيئاً عظيماً، فمن الخيام مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفاً، ومن الخيل ستّة وأربعون ألفاً، ومن البغال مائة ألف، ومن الحمير مائة ألف[(5)]. وكان يعقوب قد نادى في عسكره: مَن غنم شيئاً فهو له سوى السلاح؛ وأحصى ما حُمل إليه منه، فكان زيادة على سبعين ألف لبس، وقُتل من المسلمين نحو عشرين ألفاً.

ولمّا انهزم الفرنج اتّبعهم أبو يوسف، فرآهم قد أخذوا قلعة رباح[(6)]، وساروا

= ٥٩٥هـ.) ص ٦٥، ٦٦.

(١) سورة النمل، الآية ٣٧.

(٢) في (أ): «وسرى ذلك إلى».

(٣) في (أ) و (ب): «رباح» بالباء الموحّدة.

(٤) سورة التوبة، الآية ٤٠.

(٥) في ذيل الروضتين لأبي شامة ص ٧، ٨ اختلاف بالعدد، وانظر: المعجب لعبد الواحد ٢٨٢، ونهاية الأرب ٢٤/ ٣٣٤، والمؤنس لابن أبي دينار ١١٦، وابن خلدون ٦/ ٢٤٥، والاستقصا ٢/ ١٧١، والنجوم الزاهرة ٦/ ١٣٧.

(٦) في طبعة صادر ١٢/ ١١٥ «رياح» بالياء المثنّاة والتصحيح من المصادر. وفي (أ) و (ب): «قد أحلوا=

عنها من الرعب والخوف، فملكها، وجعل فيها والياً، وجُنداً يحفظونها، وعاد إلى مدينة إشبيلية.

وأمّا ألفُنْش، فإنّه لمّا انهزم حلق رأسه، ونكّس صليبه، وركب حماراً، وأقسم أن لا يركب فرساً ولا بغلاً حتى تُنصر النصرانيّة، فجمع جموعاً عظيمة، وبلغ الخبر بذلك إلى يعقوب، فأرسل إلى بلاد الغرب مرّاكُش وغيرها يستنفر الناس من غير إكراه، فأتاه من المتطوّعة والمرتزقين جمع عظيم، فالتقوا في ربيع الأوّل سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة، وغنم المسلمون ما معهم من الأموال والسلاح والدّوابّ وغيرها، وتوجّه إلى مدينة طُلَيطلة فحصرها، وقاتلها قتالاً شديداً، وقطع أشجارها، وشنّ الغارة على ما حولها من البلاد، وفتح فيها عدّة حصون، فقتل رجالها، وسبى حريمها، وخرّب دُورها، وهدم أسوارها، فضعُفت النصرانيّة حينئذٍ، وعظُم أمر الإسلام بالأندلس، وعاد يعقوب إلى إشبيلية فأقام بها.

فلمّا دخلت سنة ثلاثٍ وتسعين [وخمسمائة] سار عنها إلى بلاد الفرنج [وفعل فيها مثل فِعلِه الأوّل والثاني، فضاقت الأرضُ على الفرنج]، وذلّوا، واجتمعَ ملوكهم، وأرسلوا يطلبون الصلح، فأجابهم إليه بعد أن كان عازماً على الامتناع مُريداً لمُلازمة[1] الجهاد إلى أن يفرغ منهم، فأتاه خبر عليّ بن اسحاق الملثّم المَيُورقيّ أنّه فعل بإفريقية ما نذكره من الأفاعيل الشنيعة، فترك عزمه، وصالحهم مدّة خمس سنين، وعاد إلى مرّاكش آخر سنة ثلاثٍ وتسعين وخمسمائة[2].

= قلعة رباح»، وفي نهاية الأرب ٢٤/ ٣٣٥ «قد خلّفوا قلعة رباح»، وفي: المختار من تاريخ ابن الجزري عبارة ابن الأثير «رباح» بالموحّدة. وانظر: معجم البلدان ٣/ ٢٣.

(١) في الأوربية: «مريد الملازمة».

(٢) تُعرف هذه الموقعة بالزّلاّقة. أنظر عنها في: تاريخ مختصر الدول لابن العبري ٢٢٤، وذيل الروضتين لأبي شامة ٧، ٨، ومرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٤٤٦ ـ ٤٤٨ و٤٤٩، والأنيس المطرب ١٥٦ ـ ١٦٣، والمؤنس ١١٦، والاستقصا ٢/ ١٦٦ ـ ١٧٢، والمعجب ٢٨٢، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٤٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٩١، والدر المطلوب لابن أيبك ١٢٧، ونهاية الأرب ٢٤/ ٣٣٢ ـ ٣٣٦، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٦٤ ـ ٦٨، ودول الإسلام ٢/ ١٠٢، ١٠٣، وتاريخ الإسلام (٥٩١ ـ ٦٠٠هـ.) ص ٥، ٦، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١١١، ومرآة الجنان ٣/ ٤٧٢، والبداية والنهاية ١٣/ ١٠، ١١، والنجوم الزاهرة ٦/ ١٣٧، ١٣٨، وتاريخ ابن الفرات ج ٤، ق ٢/ ١٢٧ ـ ١٣٠، وتاريخ ابن سباط ١/ ٢١٦، وشذرات الذهب ٤/ ٣٠٦، ونهاية الأرب ٢٤/ ٣٣٦.

ذكر فِعلة الملثّم بإفريقية

لمّا عبر أبو يوسف يعقوب، صاحب المغرب، إلى الأندلس، كما ذكرنا، وأقام مجاهداً ثلاث سنين، انقطعت أخباره عن إفريقية، فقوي طمع عليّ بن إسحق الملثّم المَيُورقيّ، وكان بالبرّية مع العرب، فعاود قصد إفريقية، فانبثّ جنوده في البلاد فخرّبوها، وأكثروا الفساد فيها، فمُحيتْ آثار تلك البلاد وتغيّرت، وصارت خالية من الأنيس، خاوية على عروشها.

وأراد المسير إلى بجَاية ومحاصرتها لاشتغال يعقوب بالجهاد، وأظهر أنّه إذا استولى على بجَاية سار إلى المغرب؛ فوصل الخبر إلى يعقوب بذلك، فصالح الفرنج على ما ذكرناه، وعاد إلى مَرّاكُش عازماً على قصده، وإخراجه من البلاد، كما فعل سنة إحدى وثمانين وخمسمائة وقد ذكرناه[1].

ذكر مُلك عسكر الخليفة أصفهان

في هذه السنة جهّز الخليفة الناصر لدين الله جيشاً وسيّره إلى أصفهان، ومقدّمهم سيف الدّين طُغرُل، مقطعُ بلد اللِّحف من العراق، وكان بأصفهان عسكر لخُوارزم شاه مع ولده.

وكان أهل أصفهان يكرهونهم، فكاتب صدر الدّين الخُجَنديّ رئيس الشافعيّة بأصفهان الدّيوانَ ببغداد يبذل من نفسه تسليم البلد إلى من يصل الدّيوان من العساكر، وكان هو الحاكم بأصفهان على جميع أهلها، فسُيّرت العساكر، فوصلوا إلى أصفهان، ونزلوا بظاهر البلد، وفارقه عسكر خُوارزم شاه، وعادوا إلى خُراسان، وتبِعهم بعض عسكر الخليفة، فتخطّفوا[2] منهم، وأخذوا من ساقة العسكر مَن قدروا عليه، ودخل عسكر الخليفة إلى أصفهان وملكوها[3].

ذكر ابتداء حال كوكجه ومُلكه بلد الرّيّ وهَمَذان وغيرهما

لمّا عاد خُوارزم شاه إلى خُراسان، كما ذكرنا، اتّفق المماليك الذين للبهلوان والأمراء، وقدّموا على أنفسهم كوكجه[4]، وهو من أعيان المماليك البهلوانيّة،

---

(١) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٩٢هـ.) ص ١٠.

(٢) في الأوربية: «فتحفّظوا».

(٣) نهاية الأرب ٢٣/ ٣١٤.

(٤) ويقال «كوكج».

واستولى على الرَّيّ وما جاورها من البلاد، وساروا إلى أصفهان لإخراج الخُوارزميّة منها، فلمّا قاربوها سمعوا بعسكر الخليفة عندها، فأرسل إلى مملوك الخليفة سيف الدّين طُغرُل يعرض نفسه على خدمة الدّيوان، ويُظهر العبوديّة، وأنّه إنّما قصد أصفهان في طلب العساكر الخُوارزميّة، وحيث رآهم فارقوا أصفهان سار في طلبهم، فلم يُدركهم، وسار عسكر الخليفة من أصفهان إلى همذان.

وأمّا كوكجه فإنّه تبع الخُوارزميّة إلى طَبَس، وهي من بلاد الإسماعيليّة، وعاد فقصد أصفهان وملكها، وأرسل إلى بغداد يطلب أن يكون له الرَّي وخُوار الرَّيّ، وساوة، وقُمّ، وقَاجَان، وما ينضمّ إليها إلى حدّ مَزْدَغان، وتكون أصفهان، وهمذان، وزَنجان، وقزوين، لديوان الخليفة، فأجيب إلى ذلك، وكُتب له منشور بما طلب، وأُرسلت له الخِلع، فعظُم شأنه، وقوي أمره، وكثُرت عساكره، وتعظّم على أصحابه[1].

ذكر حصر العزيز دمشق ثانية وانهزامه عنها

وفي هذه السنة أيضاً خرج الملك العزيز عثمان بن صلاح الدّين من مصر في عساكره إلى دمشق يريد حصرها، فعاد عنها منهزماً.

وسبب ذلك أنّ مَن عنده من مماليك أبيه، وهم المعروفون بالصلاحيّة: فخر الدّين جركس، وسرا سُنقُر، وقرَاجا، وغيرهم كانوا منحرفين عن الأفضل عليّ بن صلاح الدّين لأنّه كان قد أخرج مَن عنده منهم مثل: ميمون القصْريّ، وسنقر الكبير، وأيبَك وغيرهم، فكانوا لا يزالون يخوّفون العزيز من أخيه، ويقولون: إنّ الأكراد والمماليك الأسديّة من عسكر مصر يريدون أخاك، ونخاف أن يميلوا إليه ويُخرجوك من البلاد، والمصلحة أن نأخذ دمشق؛ فخرج في العام الماضي وعاد، كما ذكرناه، فتجهّز هذه السنة ليخرج، فبلغ الخبر إلى الأفضل، فسار من دمشق إلى عمّه الملك العادل، فاجتمع به بقلعة جَعْبَر، ودعاه إلى نُصرته، وسار من عنده إلى حلب، إلى أخيه الملك الظاهر غازي، فاستنجد به، وسار الملك العادل من قلعة جَعْبَر إلى دمشق، فسبق الأفضلَ إليها ودخلها، وكان الأفضل لثقته به قد أمر نوّابه بإدخاله إلى القلعة، ثمّ عاد الأفضل من حلب إلى دمشق ووصل الملك العزيز إلى قرب دمشق،

---

(1) الخبر باختصار شديد في: تاريخ الإسلام (حوادث ٥٩١هـ.) ص ٣، ونهاية الأرب ٢٣/٣١٤، ٣١٥.

فأرسل مقدّم الأسديّة، وهو سيف الدّين أيازكوش، وغيره منهم، ومن الأكراد أبو الهيجاء السمين وغيره، إلى الأفضل والعادل بالانحياز إليهما والكون معهما، ويأمرهما بالاتّفاق على العزيز والخروج من دمشق ليسلّموه إليهما.

وكان سبب الانحراف عن العزيز وميلهم إلى الأفضل أنّ العزيز لمّا ملك مصر مال إلى المماليك الناصريّة، وقدّمهم، ووثق بهم، ولم يلتفت إلى هؤلاء الأمراء، فامتعضوا[1] من ذلك، ومالوا إلى أخيه، وأرسلوا إلى الأفضل والعادل فاتّفقا على ذلك، واستقرّت القاعدة بحضور رسُل الأمراء أنّ الأفضل يملك الدّيار المصريّة، ويسلّم دمشق إلى عمّه الملك العادل، وخرجا من دمشق، فانحاز إليهما مَن ذكرنا، فلم يمكن العزيز المقام، بل عاد منهزماً يطوي المراحل خوف الطلب ولا يصدّق بالنجاة، وتساقط أصحابه عنه إلى أن وصل إلى مصر.

وأمّا العادل والأفضل فإنّهما أرسلا إلى القدس، وفيه نائب العزيز، فسلّمه إليهما، وسارا فيمَنْ معهما من الأسديّة والأكراد إلى مصر، فرأى العادل انضمام العساكر إلى الأفضل، واجتماعهم عليه، فخاف أنّه يأخذ مصر، ولا يسلّم إليه دمشق، فأرسل حينئذٍ سرّاً إلى العزيز يأمره بالثبات، وأن يجعل بمدينة بلبيس مَن يحفظها، وتكفّل بأنّه يمنع الأفضل وغيره من مقاتلة مَن بها، فجعل العزيز الناصريّة ومقدّمهم فخر الدّين جركس بها ومعهم غيرهم، ووصل العادل والأفضل إلى بِلبِيس، فنازلوا مَن بها من الناصريّة، وأراد الأفضل مناجزتهم، أو تركهم بها والرحيل إلى مصر، فمنعه العادل من الأمرَيْن، وقال: هذه عساكر الإسلام، فإذا اقتتلوا في الحرب فمَن يردّ العدوّ الكافر، وما بها حاجة إلى هذا، فإن البلاد لك وبحكمك، ومتى قصدتَ مصر والقاهرة وأخذتَهما قهراً زالت هيبة البلاد، وطمع فيها الأعداء، وليس فيها مَن يمنعك عنها.

وسلك معه أمثال هذا، فطالت الأيّام، وأرسل إلى العزيز سرّاً يأمره بإرسال القاضي الفاضل، وكان مطاعاً عند البيت الصلاحيّ لعُلوّ منزلته كانت عند صلاح الدّين، فحضر عندهما، وأجرى ذِكر الصلح، وزاد القول ونقص، وانفسخت العزائم واستقرّ الأمر على أن يكون للأفضل القدس وجميع البلاد بفلسطين وطبريّة والأردن

---

(١) في الأوربية: «فاتّفقوا».

وجميع ما بيده، ويكون للعادل إقطاعه الذي كان قديماً، ويكون مقيماً بمصر عند العزيز، وإنّما اختار ذلك لأنّ الأسديّة والأكراد لا يريدون العزيز، فهم يجتمعون معه، فلا يقدر العزيز على منعه عمّا يريد، فلمّا استقرّ الأمر على ذلك وتعاهدوا عاد الأفضل إلى دمشق وبقي العادل بمصر عند العزيز[1].

ذكر عدّة حوادث[2]

في ذي القعدة، التاسع عشر منه، وقع حريق عظيم ببغداد بعقد المصطنع فاحترقت المربّعة التي بين يديه، ودُكّان ابن البخيل الهرّاس، وقيل كان ابتداؤه[3] من دار ابن البخيل.

---

(1) أنظر: مفرّج الكروب لابن واصل ٣/ ٥٠ ـ ٥٤، وزبدة الحلب ٣/ ١٣٣ ـ ١٣٥، والمختصر لأبي الفداء ٣/ ٩١، والدر المطلوب ١٢٧، ونهاية الأرب ٢٨/ ٤٤٦ ـ ٤٤٨، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٩١هـ.) ص ٣، وتاريخ ابن الوردي ٢٠/ ١١١، ومرآة الجنان ٣/ ٤٧٣، والبداية والنهاية ١٣/ ١١، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٣١، ٣٣٢، وتاريخ ابن الفرات ج ٤، ق ٢/ ١٠٣ ـ ١٠٦، وتاريخ ابن سباط ١/ ٢١٧.

(2) العنوان من (أ).

(3) في الأوربية: «ابتداؤها».

٥٩٢

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة

ذكر مُلك شهاب الدين بهنكر[1] وغيرها من بلد الهند

في هذه السنة سار شهاب الدّين الغوريّ، صاحب غَزْنة، إلى بلد الهند، وحصر قلعة بهنكر[1]، وهي قلعة عظيمة منيعة، فحصرها، فطلب أهلها منه الأمان على أن يسلّموا إليه، فأمّنهم وتسلّمها، وأقام عندها عشرة أيّام حتّى رتّب جُندها وأحوالها وسار عنها إلى قلعة كوالير[2]، وبينهما مسيرة خمسة أيّام، وفي الطريق نهر كبير، فجازه، ووصل إلى كوالير[2]، وهي قلعة منيعة حصينة على جبلٍ عالٍ لا يصل إليها حجر منجنيق، ولا نشّاب، وهي كبيرة، فأقام عليها صَفَراً جميعَه يحاصرها، فلم يبلغ منها غرضاً، فراسله مَن بها في الصلح، فأجابهم إليه على أن يُقرّ القلعة بأيديهم على مالٍ يحملونه إليه، فحملوا إليه فيلاً حمْله ذهب، فرحل عنها إلى بلاد آي وسور[3]، فأغار عليها ونهبها، وسبى وأسر ما يعجز العادّ عن حصره، ثمّ عاد إلى غزنة سالماً.

ذكر مُلك العادل مدينة دمشق من الأفضل

في هذه السنة، في السابع والعشرين من رجب، ملك الملك العادل أبو بكر بن أيّوب مدينة دمشق من ابن أخيه الأفضل عليّ بن صلاح الدّين.

وكان أبلغ الأسباب في ذلك وثوق الأفضل بالعادل، وأنّه بلغ من وثوقه به أنّه أدخله بلده وهو غائب عنه، ولقد أرسل إليه أخوه الظاهر غازي، صاحب حلب، يقول له: أخرج عمّنا من بيننا فإنّه لا يجيء علينا منه خير، ونحن ندخل لك تحت كلّ ما تريد، وأنا أعرف به منك، وأقرب إليه، فإنّه عمّي مثل ما هو عمّك، وأنا زوج ابنته،

---

(١) في الباريسية: «نهنكر».

(٢) في النسخة رقم ٧٤٠ «كواكير».

(٣) في الباريسية: «اصي وسور»، وفي النسخة رقم ٧٤٠ «الصي وصور».

ولو علمتُ أنّه يريد لنا خيراً لكنتُ أولى به مِنك. فقال له الأفضل: أنت سيّء الظنّ في كلّ أحد، أيّ مصلحة لعمّنا في أن يؤذينا؟ ونحن إذا اجتمعت كلمتنا، وسيّرنا معه العساكر من عندنا كلّنا، ملك[1] من البلاد أكثر من بلادنا، ونربحُ سوء الذِّكْر.

وهذا كان أبلغ الأسباب، ولا يَعْلمها كلّ أحد، وأمّا غير هذا، فقد ذكرنا مسير العادل والأفضل إلى مصر وحصارهم بِلبِيس، وصلحهم مع الملك العزيز بن صلاح الدّين، ومقام العادل معه بمصر، فلمّا أقام عنده استماله، وقرّر معه أنّه يخرج معه إلى دمشق ويأخذها من أخيه ويسلّمها إليه، فسار معه من مصر إلى دمشق، وحصروها، واستمالوا أميراً من أمراء الأفضل يقال له العزّ [بن] أبي غالب الحمصيّ، وكان الأفضل كثير الإحسان إليه، والاعتماد عليه، والوثوق به، فسلّم إليه باباً من أبواب دمشق يُعرف بالباب الشرقيّ ليحفظه، فمال إلى العزيز والعادل، ووعدهما أنّه يفتح لهما الباب، ويدخل العسكر منه إلى البلد غيلةً، ففتحه اليوم السابع والعشرين من رجب، وقت العصر، وأدخل الملك العادل منه ومعه جماعة من أصحابه، فلم يشعر الأفضل إلاّ وعمّه معه في دمشق، وركب الملك العزيز، ووقف بالميدان الأخضر غربيّ دمشق.

فلمّا رأى الأفضل أنّ البلد قد مُلك خرج إلى أخيه، وقت المغرب واجتمع به، ودخلا كلاهما البلد، واجتمعا بالعادل وقد نزل في دار أسد الدّين شيركوه، وتحادثوا، فاتّفق العادل والعزيز على أن أوهما الأفضل أنّهما يُبقيان عليه البلدَ خوفاً أنّه ربّما جمع مَن عنده من العسكر وثار بهما، ومعه العامّة، فأخرجهم من البلد، لأنّ العادل لم يكن في كثرة؛ وأعاد الأفضل إلى القلعة، وبات العادل في دار شيركوه، وخرج العزيز إلى الخِيَم فبات فيها، وخرج العادل من الغد إلى جَوْسقه فأقام به، وعساكره في البلد في كلّ يوم يخرج الأفضل إليهما، ويجتمع بهما، فبقوا كذلك أيّاماً، ثمّ أرسلا إليه وأمراه بمفارقة القلعة وتسليم البلد على قاعدة أن تُعطى قلعة صَرْخَد له، ويسلّم جميع أعمال دمشق، فخرج الأفضل، ونزل في جوسقٍ بظاهر البلد، غربيّ دمشق، وتسلّم العزيز القلعة، ودخلها، وأقام بها أيّاماً، فجلس يوماً في مجلس شرابه، فلمّا أخذت منه الخمر جرى على لسانه أنّه يعيد البلد إلى الأفضل، فنُقل ذلك إلى العادل في وقته، فحضر المجلس في ساعته، والعزيز سكران، فلم يزل به حتّى سلّم البلد إليه، وخرج

---

(١) في الأوربية: «فملك».

منه، وعاد إلى مصر، وسار الأفضل إلى صرخد.

وكان[١] العادل يذكر أنّ الأفضل سعى في قتله، فلهذا أخذ البلد منه، وكان الأفضل ينكر ذلك ويتبرّأ منه ﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٢].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في المحرّم، هبّت ريح شديدة بالعراق، واسودّت لها الدنيا، ووقع رمل أحمر، واستعظم الناس ذلك وكبّروا، واشتعلت الأضواء بالنهار[٣].

وفيها قُتل صدر الدّين محمود بن عبد اللطيف بن محمّد بن ثابت الخُجَنديّ، رئيس الشافعيّة بأصفهان، قتله فَلَك الدّين سنقر الطّويل، شِحنة أصفهان بها[٤]، وكان قدِم بغداد سنة ثمانٍ وثمانين وخمسمائة، واستوطنها، ووليَ النظر في المدرسة النظاميّة ببغداد، ولمّا سار مؤيّد الدّين بن القصّاب إلى خُوزستان سار في صُحبته، فلمّا ملك الوزير أصفهان أقام ابن الخُجَنْديّ بها في بيته وملكه ومنصبه، فجرى بينه وبين سنقر الطويل شِحنة أصفهان للخليفة منافرة فقتله سنقر.

١ وفي رمضان درّس مُجير الدّين أبو القاسم محمود بن المبارك البغداديّ، الفقيه الشافعيّ، بالمدرسة النظاميّة ببغداد.

وفي شوّال منها استُنيب نصير الدّين ناصر بن مهديّ العلويّ الرّازيّ في الوزارة ببغداد، وكان قد توجّه إلى بغداد لمّا ملك ابن القصّاب الرَّيّ[٥].

وفيها وليَ أبو طالب يحيى بن سعيد بن زيادة ديوان الإنشاء ببغداد، وكان كاتباً

---

(١) من (أ).

(٢) سورة البقرة، الآية ١١٣.

وانظر الخبر في: مفرّج الكروب ٣/ ٦٢ ـ ٧٠، والذيل على الروضتين ١٠، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٩٢، والدر المطلوب ١٢٨، ونهاية الأرب ٢٨/ ٤٤٩، ٤٥٠، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٩٢هـ.) ص ٧، ٨، ودول الإسلام ٢/ ١٠٣، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١١١، ومرآة الجنان ٣/ ٤٧٣، والبداية والنهاية ١٣/ ١٢، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٣٢، والسلوك ج ١، ق ١/ ١٢٩، وتاريخ ابن سباط ١/ ٢١٧، ٢١٨.

(٣) أنظر: مرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٤٤٨، ٤٤٩، ذيل الروضتين ١٠، البداية والنهاية ١٣/ ١٢.

(٤) في (ب) زيادة: «في جمادى».

(٥) خلاصة الذهب المسبوك ٢٨٣، مختصر التاريخ لابن الكازروني ٢٥٠، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٩٢ هـ) ص ٧.

مُفلقاً، وله شِعر جيّد.

[الوفيات]

وفي صفر منها تُوفّي الفخر محمود بن علي القوفاني[1] الفقيه الشافعي بالكوفة، عائداً من الحج، وكان من أعيان أصحابه محمد بن يحيى.

وفي رجب منها تُوفّي أبو الغنائم محمّد بن عليّ بن المعلّم الشاعر الهُرْثيّ، والهُرْثُ بضمّ الهاء والثاء المثلّثة قرية من أعمال واسط، عن إحدى وتسعين سنة.

وفي رابع شعبان منها تُوفّي الوزير مؤيّد الدّين أبو الفضل محمّد بن عليّ بن القصّاب بهمذان، وقد ذكرنا من كفايته ونهضته ما فيه كفاية.

---

(١) في (أ): «محمد بن النوقاني» وفي (ب): «التوماني».

٥٩٣
ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

ذكر إرسال الأمير أبي الهيجاء إلى هَمذان وما فعله

في هذه السنة، في صفر، وصل إلى بغداد أمير كبير من أمراء مصر اسمه أبو الهيجاء، ويُعرف بالسمين، لأنّه كان كثير السُّمْن، وكان من أكابر أمراء مصر، وكان في إقطاعه أخيراً البيت المقدّس وغيره ممّا يجاوره، فلمّا ملك العزيز والعادل مدينة دمشق من الأفضل، أخذ القدس منه، ففارق الشام، وعبر الفرات[1] إلى الموصِل، ثمّ انحدر إلى بغداد، لأنّه طُلب من ديوان الخلافة، فلمّا وصل إليها أُكرم إكراماً كثيراً، ثمّ أُمر بالتجهيز والمسير إلى همذان مقدّماً على العساكر البغدادية، فسار إليها والتقى عندها بالملك أوزبك بن البهلوان وأمير علم وابنه، وابن سطمس وغيرهم، وهم قد كاتبوا الخليفة بالطاعة، فلمّا اجتمع بهم وثقوا به[2] ولم يحذروه، فقبض على أوزبك وابن سطمس وابن قرا بموافقة من أمير علم، فلمّا وصل الخبر بذلك إلى بغداد أُنكرت هذه الحال على أبي الهيجاء، وأُمر بالإفراج عن الجماعة وسُيّرت لهم الخِلَع من بغداد تطييباً لقلوبهم، فلم يسكنوا بعد هذه الحادثة ولا أمِنوا، ففارقوا أبا الهيجاء السمين، فخاف الدّيوان، فلم يرجع إليه، ولم يمكنه أيضاً المقام، فعاد يريد إربل لأنّه من بلدها هو، فتُوفّي قبل وصوله إليها، وهو من الأكراد الحكميّة من بلد إربل[3].

ذكر مُلك العادل يافا من الفرنج
ومُلك الفرنج بيروت من المسلمين وحصر الفرنج تِبنين ورحيلهم عنها

في هذه السنة، في شوّال، ملك العادل أبو بكر بن أيّوب مدينة يافا من الساحل

---

(١) في الأوربية: «الفراة».

(٢) في الأوربية: «إليه».

(٣) مرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٤٥٢، مفرّج الكروب ٣/ ٧٠، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٩٣هـ.) ص ١١، ذيل الروضتين ١١.

الشامي، وهي[1] بيد الفرنج، لعنهم الله.

وسبب ذلك[2] أنّ الفرنج كان قد ملكهم الكُنْد هري[3]، على ما ذكرناه قبلُ، وكان الصلح قد استقرّ بين المسلمين والفرنج أيّام صلاح الدّين يوسف بن أيّوب، رحمه الله تعالى، فلمّا تُوفّي وملك أولاده بعده، كما ذكرناه، جدّد الملك العزيز الهدنة مع الكُنْد هري [ملك الفرنج] وزاد في مدّة الهدنة، وبقي ذلك إلى الآن.

وكان بمدينة بيروت أمير يُعرف بأسامة[4]، وهو مُقْطَعُها، فكان يرسل الشواني تقطع الطريق على الفرنج، فاشتكى[5] الفرنج من ذلك غير مرّة إلى الملك العادل بدمشق، وإلى الملك العزيز بمصر، فلم يمنعا أسامة من ذلك، فأرسلوا إلى ملوكهم الذين داخل البحر يشتكون إليهم ما يفعل بهم المسلمون، ويقولون: إن لم تنجدونا، وإلاّ أخذ المسلمون البلاد؛ فأمدّهم الفرنج بالعساكر الكثيرة، وكان أكثرهم من ملك الألمان، وكان المقدّم عليهم قِسّيس يُعرف بالخنصلير، فلمّا سمع العادل بذلك أرسل إلى العزيز بمصر يطلب العساكر، وأرسل إلى ديار الجزيرة والموصل يطلب العساكر، فجاءته الأمداد[6] واجتمعوا على عين الجالوت، فأقاموا شهر رمضان وبعض شوّال، ورحلوا إلى يافا، وملكوا المدينة، وامتنع مَن بها بالقلعة التي لها، فخرّب المسلمون المدينة، وحصروا القلعة، فلمكوها عَنوةً وقهراً بالسيف في يومها، وهو يوم الجمعة، وأُخذ كلّ ما بها غنيمة وأسراً وسبْياً، ووصل الفرنج من عكّا إلى قَيسارية ليمنعوا المسلمين عن يافا[7]، فوصلهم الخبر بها بملكهافعادوا.

وكان سبب تأخّرهم أنّ ملكهم الكُنْد هري سقط من موضعٍ عالٍ بعكّا فمات، فاختلّت[8] أحوالهم فتأخّروا لذلك[9].

---

(١) في الأوربية: «هو».

(٢) في الأوربية: «ذلد».

(٣) هو هنري كونت شامبانيا.

(٤) وفي بعض المصادر: «سامة» بإسقاط الألف من أوله، ولَقَبُه: عزّ الدين.

(٥) في الأوربية: «فاشتكا».

(٦) في الأوربية: «الأمراء».

(٧) في (أ): «عن عكا»، وفي (ب): «عنها».

(٨) في الأوربية: «فاختلفت».

(٩) أنظر خبر فتح يافا في: مفرّج الكروب ٣/ ٧٥، وذيل الروضتين ١٠، ١١، والأعلاق الخطيرة =

وعاد المسلمون إلى عين الجالوت، فوصلهم الخبر بأنّ الفرنج على عزْم قصد بيروت، فرحل العادل والعسكر في ذي القعدة إلى مرج العيون، وعزم على تخريب بيروت، فسار إليها جمع من العسكر، وهدموا سور المدينة سابع ذي الحجّة، وشرعوا في تخريب دُورها وتخريب القلعة، فمنعهم أسامة من ذلك، وتكفّل بحفظها.

ورحل الفرنج من عكّا إلى صيدا، وعاد عسكر المسلمين من بيروت، فالتقوا الفرنج بنواحي صيدا، وجرى بينهم مناوشة، فقُتل من الفريقَيْن جماعة، وحجز بينهم الليل، وسار الفرنج تاسع ذي الحجّة، فوصلوا إلى بيروت، فلمّا قاربوها هرب منها أسامة وجميع مَن معه من المسلمين، فملكوها صفواً عفواً بغير حرب ولا قتال، فكانت غنيمة باردة؛ فأرسل العادل إلى صيدا مَن خرّب ما كان بقي منها، فإنّ صلاح الدّين كان قد خرّب أكثرها، وسارت العساكر الإسلاميّة إلى صور، فقطعوا أشجارها، وخرّبوا ما لها من قُرًى وأبراج، فلمّا سمع الفرنج بذلك رحلوا من بيروت إلى صور، وأقاموا عليها.

ونزل المسلمون عند قلعة هُونين[1] وأذِن للعساكر الشرقيّة بالعود ظنّاً منه أنّ

= ٢/ ٢٥٦، والدر المطلوب ١٣٠، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٩٣، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٩٣هـ.) ص ١٢، ١٣، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١١٢، ومرآة الجنان ٣/ ٤٧٥، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٣٣، والسلوك ج ١، ق ١/ ١٠٤، وشفاء القلوب ٢٠٤، وتاريخ ابن الفرات ج ٤، ق ٢/ ١٣٤ (حوادث ٥٩٤هـ.)، وتاريخ ابن سباط ١/ ٢١٨ و٢٢١.

وقيل في «أسامة» وتسليم بيروت للفرنج:

سلِّـمِ الحصـنَ مـا عليك مـلامـهْ	مـا يُـلامُ الـذي يـرومُ الـسـلامـهْ
الحصـون مـن غيـر حـربٍ	سُنَّـةٌ سَنَّـهـا ببيـروتَ سـامـهْ
أبْعـد الـلـه تـاجـراً سـنّ ذا البيـ	ـعَ وأخزى بخزْيـه مـن أسامـهْ

وانظر: كتاب الروضتين لأبي شامة ٢/ ٢٣٣، وذيله ١، ومرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٤٥٣، ومفرّج الكروب ٣/ ٧٤، والأعلاق الخطيرة ٢/ ١٠٣، وزبدة الحلب ٣/ ١٤١، وتاريخ مختصر الدول ٢٢٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٩٣، ونهاية الأرب ٢٨/ ٤٥٣، ٤٥٤، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٩٣هـ.) ص ١٤، ودول الإسلام ٢/ ١٠٣، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٢، ومرآة الجنان ٣/ ٤٧٥، والبداية والنهاية ١٣/ ١٥، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٣٣، والسلوك ج ١، ق ١/ ١٤٠، وتاريخ بيروت لصالح بن يحيى ٢١، وشفاء القلوب ٢٠٣، ٢٠٤، وتاريخ ابن الفرات ج ٤، ق ٢/ ١٣٣، وتاريخ ابن سباط ١/ ٢١٩، ٢٢٠، وانظر نص كتاب القاضي الفاضل الذي بعثه إلى أسامة في: نهاية الأرب ٥/ ٢٢٤، ٢٢٥.

(١) هُونين: بالضم ثم السكون، ونون ثم ياء ونون أخرى: بلد في جبال عاملة مطلّ على نواحي مصر. =

الفرنج يقيمون ببلادهم، وأراد أن يعطي العساكر المصريّة دستوراً بالعَود، فأتاه الخبر، منتصف المحرّم، أنّ الفرنج قد نازلوا حصن تِبنين، فسيّر العادل إليه عسكراً يحمونه ويمنعون عنه، ورحل الفرنج من صور، ونازلوا تِبنين أوّل صفر سنة أربع وتسعين [وخمسمائة] وقاتلوا مَن به، وجدّوا في القتال، ونقبوه من جهاتهم، فلمّا علم العادل بذلك أرسل إلى العزيز بمصر يطلب منه أن يحضر هو بنفسه، ويقول له: إن حضرتَ، وإلاّ فلا يمكن حفظ هذا الثغر؛ فسار العزيز مُجِدّاً فيمن بقي معه من العساكر.

وأمّا مَن بحصن تِبنين فإنهم لمّا رأوا النقوب قد خرّبت تلّ القلعة، ولم يبق إلاّ أن يملكوها بالسيف، نزل بعض مَن فيها إلى الفرنج يطلب الأمان على أنفسهم وأموالهم ليسلّموا القلعة، وكان المرجع إلى القِسّيس الخنصلير من أصحاب ملك الألمان، فقال لهؤلاء المسلمين بعض الفرنج الذين من ساحل الشام: إن سلّمتم الحصن استأسركم هذا وقتلكم؛ فاحفظوا نفوسكم؛ فعادوا كأنّهم يراجعون مَن في القلعة ليسلّموا، فلمّا صعدوا إليها أصرّوا[1] على الامتناع، وقاتلوا قتال مَن يحمي نفسه، فحموها إلى أن وصل الملك العزيز إلى عَسقلان في ربيع الأوّل، فلمّا سمع الفرنج بوصوله واجتماع المسلمين، وأنّ الفرنج ليس لهم ملك يجمعهم، وأن أمرهم إلى امرأة، وهي الملكة، اتّفقوا[2] وأرسلوا إلى ملك قبرس واسمه هيمري، فأحضروه، وهو أخو الملك الذي أُسر بِحطّين، كما ذكرناه، فزوّجوه[3] بالملكة زوجة الكُنْد هري، وكان رجلاً عاقلاً يحبّ السلامة والعافية، فلمّا ملكهم لم يعد إلى الزحف على الحصن، ولا قاتله.

واتّفق وصول العزيز أوّل شهر ربيع الآخر، ورحل هو والعساكر إلى جبل الخليل الذي يُعرف بجبل عاملة، فأقاموا أيّاماً، والأمطار متداركة، فبقي إلى ثالث عشر الشهر، ثمّ سار وقارب الفرنج، وأرسل رُماة النشّاب، فرموهم ساعة وعادوا، ورتّب العساكر ليزحف إلى الفرنج ويجدّ في قتالهم، فرحلوا إلى صور خامس عشر الشهر المذكور ليلاً، ثمّ رحلوا إلى عكّا، فسار المسلمون فنزلوا اللّجُون، وتراسلوا في الصلح، وتطاول الأمر، فعاد العزيز إلى مصر قبل انفصال الحال.

= (معجم البلدان ٥/ ٤٢٠).

(١) في الأوربية: «صرّوا».

(٢) في الأوربية: «فاتفقوا».

(٣) في الأوربية: «فزوّجه».

وسببُ رحيله أنّ جماعة من الأمراء، وهم ميمون القصْريّ، وأسامة، وسراسنقر، والحجّاف، وابن المشطوب، وغيرهم، قد عزموا على الفتك به وبفخر الدّين جركس مدبّر دولته، وضعهم العادل على ذلك، فلمّا سمع بذلك سار إلى مصر وبقي العادل، وتردّدت الرسل بينه وبين الفرنج في الصلح، فاصطلحوا على أن تبقى بيروت بيد الفرنج، وكان الصلح في شعبان سنة أربعٍ وتسعين [وخمسمائة]، فلمّا انتظم[١] الصلح عاد العادل إلى دمشق، وسار منها إلى ماردين، من أرض الجزيرة، فكان ما نذكره، إن شاء الله تعالى[٢].

ذكر وفاة سيف الإسلام ومُلك ولده

في شوّال من هذه السنة تُوفّي سيف الإسلام طُغتُكِين بن أيّوب، أخو صلاح الدّين، وهو صاحب اليمن، بزَبِيد، وقد ذكرنا كيف ملك. وكان شديد السيرة، مُضيّقاً على رعيّته، يشتري أموال التّجّار لنفسه ويبيعها كيف شاء.

وأراد مُلك مكّة، حرسها الله تعالى، فأرسل الخليفة الناصر لدين الله إلى أخيه صلاح الدّين في المعنى، فمنعه من ذلك، وجمع من الأموال ما لا يُحصى، حتّى إنّه من كثرته كان يسبك الذَّهَب ويجعله كالطّاحون ويدّخره[٣].

ولمّا تُوفّي ملك بعده ابنه إسمعيل، وكان أهوج، كثير التّخليط بحيث إنّه ادّعى أنّه قُرَشيّ من بني أُميّة، وخطب لنفسه بالخلافة، وتلقّب بالهادي، فلمّا سمع عمّه الملك العادل ذلك ساءه وأهمّه، وكتب إليه يلومه ويُوبّخه، ويأمره بالعَود إلى نسبه الصحيح، وبترك ما ارتكبه ممّا يضحك الناس منه، فلم يلتفت إليه ولم يرجع وبقي كذلك، وانضاف إلى ذلك أنّه أساء السيرة مع أجناده وأمرائه، فوثبوا عليه فقتلوه، وملّكوا عليهم بعده أميراً من مماليك أبيه[٤].

---

(١) في الأوربية: «انضم».

(٢) مفرّج الكروب ٣/ ٧٥ ـ ٧٨، وذيل الروضتين ١٣، ومرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٤٥٥، ٤٥٦، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٩٣، ٩٤، والدر المطلوب ١٣٣، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٩٤هـ.) ص ١٥، ودول الإسلام ٢/ ١٠٤، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١١٢، ١١٣، والبداية والنهاية ١٣/ ١٦، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٣٣، والسلوك ج ١، ق ١/ ١٤١، وشفاء القلوب ٢٠٤، وتاريخ ابن الفرات ج ٤، ق ٢/ ١٣٤، ١٣٥، وتاريخ ابن سباط ١/ ٢٢٢.

(٣) مفرّج الكروب ٣/ ٧٢، نهاية الأرب ٢٨/ ٤٥٤.

(٤) مفرّج الكروب ٣/ ٧٣، نهاية الأرب ٢٨/ ٤٥٤.

ذكر عدّة حوادث

[الوَفَيَات]

في هذه السنة، في ربيع الآخر، تُوفّي أبو بكر عبد الله بن منصور بن عِمران الباقِلّانيّ المُقْري الواسطيّ بها عن ثلاثٍ وتسعين سنة وثلاثة أشهر وأيّام، وهو آخر مَن بقي من أصحاب القلانِسِيّ.

وفي جُمادى الآخرة تُوفّي قاضي القُضاة أبو طالب عليُّ بن عليّ بن البُخاريّ ببغداد ودُفن بتربته في مشهد باب التّين.

وفيها، في ربيع الآخر، تُوفّي ملكشاه بن خُوارزم شاه تكش بنَيسابور، وكان أبوه قد جعله فيها، وأضاف إليه عساكر جميع بلاده التي بخُراسان وجعله وليّ عهده في المُلك، وخَلّف ولداً اسمه هِندوخان، فلمّا مات جعل فيها (أبوه خُوارزم شاه)[1] بعده ولده الآخر قُطْب الدّين محمّداً، وهو الذي ملك بعد أبيه، وكان بين الأخوين عداوة مستحكمة أفضَت إلى أنّ محمّداً لمّا ملك بعد أبيه هرب هندوخان بن ملكشاه منه على ما نذكره.

[وفيها تُوفّي شيخنا أبو القاسم يعيش بنْ صَدَقَة بن عليّ الفُراتيّ الضرير، الفقيه الشافعيّ، كان إماماً في الفقه، مدرّساً صالحاً كثير الصلاح، سمعتُ عليه كثيراً، لم أر مثله، رحمه الله تعالى.

ولقد شاهدتُ منه عجباً يدلّ على دينه وإرادته، بعمله، وجه الله تعالى، وذلك أنّي كنتُ أسمع عليه ببغداد «سُنَن» أبي عبد الرحمن النَّسائيّ، وهو كتاب كبير، والوقت ضيّق لأنّي كنت مع الحُجّاج قد عدنا من مكّة، حرسها الله، فبينما نحن نسمع عليه مع أخي الأكبر مجد الدّين أبي السعادات، إذ قد أتاه إنسان من أعيان بغداد، وقال له: قد برز الأمر لتحضر لأمر كذا؛ فقال: أنا مشغول بسماع هؤلاء السادة، ووقتهم يفوت، والذي يُراد منّي لا يفوت؛ فقال: أنا لا أحسن أذكر هذا في مقابل أمر الخليفة. فقال: لا عليك! قُلْ: قال أبو القاسم لا أحضر حتّى يفرغ السماع؛ فسألناه ليمشي معه، فلم يفعل ذلك، وقال: اقرأوا؛ فقرأنا، فلمّا كان الغد حضر غلام لنا، وذكر أنّ أمير الحاجّ الموصليّ قد رحل، فعظُم الأمر علينا فقال: ولِمَ يعظُم عليكم العَود إلى

---

(١) من (أ).

أهلكم وبلدكم؟ فقلنا: لأجل فراغ هذا الكتاب؛ فقال: إذا رحلتم أستعير دابّة وأركبها، فأسير معكم وأنتم تقرأون، فإذا فرغتم عُدْتُ. فمضى الغلام ليتزوّد، ونحن نقرأ، فعاد وذكر أنّ الحاجّ لم يرحلوا، ففرغنا من الكتاب؛ فانظر إلى هذا الدّين المتين يردّ أمر الخليفة وهو يخافه ويرجوه، ويريد [أن] يسير معنا ونحن غرباء لا يخافنا ولا يرجونا][1].

(١) ما بين الحاصرتين من (أ).

٥٩٤
ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسمائة

ذكر وفاة عماد الدين ومُلك ولده قطب الدين محمّد

في هذه السنة، في المحرّم، تُوفّي عماد الدّين زنكي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر، صاحب سنجار ونصيبين والخابور والرَّقّة، وقد تقدّم ذِكره كيف ملكها سنة تسع وسبعين [وخمسمائة]؛ وملك بعده ابنه قُطْب الدّين محمّد، وتولّى تدبير دولته مجاهد الدّين يرنقش مملوك أبيه، وكان ديّناً خيّراً عادلاً، حسن السيرة في رعيّته، عفيفاً عن أموالهم وأملاكهم، متواضعاً، يحبّ أهل العلم والدّين، ويحترمهم، ويجلس معهم، ويرجع إلى أقوالهم؛ وكان رحمه الله شديد التّعصّب على مذهب الحنفيّة، كثير الذّمّ للشافعيّة، فمن تعصّبه أنّه بنى مدرسة للحنفيّة بسنجار، وشرط أن يكون النظر للحنفيّة من أولاده دون الشافعيّة، وشرط أن يكون البوّاب والفرّاش على مذهب أبي حنيفة، وشرط للفقهاء طبيخاً يُطبخ لهم[1] كلّ يوم، وهذا نَظَرٌ حَسَن، رحمه الله.

ذكر مُلك نور الدّين نَصِيبين

في هذه السنة، في جُمادى الأولى، سار نور الدّين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود، صاحب الموصل، إلى مدينة نَصِيبين، فملكها، وأخذها من ابن عمّه قُطْب الدّين محمّد.

وسبب ذلك أنّ عمّه عماد الدّين كان له نَصِيبين، فتطاول نوّابه بها، واستولوا على عدّة قُرَى من أعمال بين النهرَيْن من ولاية الموصل، وهي تجاور نصِيبين، فبلغ الخبر مجاهدَ الدّين قايماز القائم بتدبير مملكة نور الدّين بالموصل وأعمالها والمرجوع إليه فيها، فلم يُعلم مخدومه نور الدّين بذلك، لما علم من قلّة صبره على احتمال مثل

---

(١) في الأوربية: «ذلك».

هذا، وخاف أن يجري خُلف بينهم، فأرسل من عنده رسولاً إلى عماد الدّين في المعنى، وقبّح هذا الفعل الذي فعله النوّاب بغير أمره، وقال: إنّني ما أعلمتُ نور الدّين بالحال لئلاّ يخرج عن يدك، فإنّه ليس كوالده، وأخاف [أن] يبدو منه ما يخرج الأمر فيه عن يدي؛ فأعاد الجواب: إنّهم لم يفعلوا إلاّ ما أمرتُهم به، وهذه القرى من أعمال نصِيبين.

فتردّدت الرسل بينهما، فلم يرجع عماد الدّين عن أخذها، فحينئذٍ أعلم مجاهدُ الدّين نورَ الدّين بالحال، فأرسل نور الدّين رسولاً من مشايخ دولته ممّن خدم جدّهم الشهيد زنكي ومن بعده، وحمّله رسالة فيها بعض الخشونة، فمضى الرسول فلحق عماد الدّين وقد مرض، فلمّا سمع الرسالة لم يلتفت، وقال: لا أعيد ملكي؛ فأشار الرسول من عنده، حيث هو من مشايخ دولتهم، فترك اللّجاج، وتسليم ما أخذه، وحذّره عاقبة ذلك؛ فأغلظ عليه عماد الدّين القول، وعرّض بذمّ نور الدّين واحتقاره، فعاد الرسول وحكى لنور الدّين جليّة الحال، فغضب لذلك، وعزم على المسير إلى نَصِيبين وأخذها من عمّه.

فاتّفق أنّ عمّه مات، وملك بعده ابنه، فقوي طمعه، فمنعه مجاهد الدّين فلم يمتنع وتجهّز وسار إليها، فلمّا سمع قُطْب الدّين صاحبها سار إليها من سنجار في عسكره، ونزل عليها ليمنع نور الدّين عنها، فوصل نور الدّين، وتقدّم إلى البلد، وكان بينهما نهر، فجازه بعض أمرائه، وقاتل مَن بإزائه، فلم يثبتوا له، فعبر جميع العسكر النوريّ، وتمّت الهزيمة على قُطب الدّين، فصعِد هو ونائبه مجاهد الدّين يرنقش إلى قلعة نصيبين، وأدركهم الليل، فخرجوا منها هاربين إلى حَرّان، وراسلوا الملك العادل أبا بكر بن أيّوب، صاحب حرّان وغيرها، وهو بدمشق، وبذلوا له الأموال الكثيرة لينجدهم ويعيد نصِيبين إليهم.

وأقام نور الدّين بنصِيبين مالكاً لها، فتضعضع عسكره بكثرة الأمراض، وعَودهم إلى الموصل، وموت كثير منهم، ووصل العادل إلى الدّيار الجزريّة، فحينئذٍ فارق نور الدّين نصِيبين وعاد إلى الموصل في شهر رمضان، فلمّا فارقها تسلّمها قطب الدّين.

وممّن تُوفّي من أمراء الموصل: عزّ الدّين جورديك، وشمس الدّين عبد الله بن إبراهيم، وفخر الدّين عبد الله بن عيسى المهرانيّان، ومجاهد الدّين قايماز، وظهير الدّين يولق بن بلنكريّ، وجمال الدّين محاسن وغيرهم. ولمّا عاد نور الدّين إلى

الموصل قصد العادل قلعة ماردين فحصرها، وضيّق على أهلها، على ما نذكره إن شاء الله تعالى[1].

ذكر مُلك الغوريّة مدينة بَلْخ من الخطا الكَفَرَة

في هذه السنة ملك بهاء الدّين سام بن محمّد بن مسعود، وهو ابن أخت غياث الدّين [وشهاب الدّين] صاحبَيْ غَزْنة وغيرها، وله باميان، مدينةَ بَلْخ، وكان صاحبها تُركيّاً اسمه أزيه، وكان يحمل الخراج كلّ سنة إلى الخطا، بما وراء النهر، فتُوفّي هذه السنة، فسار بهاء الدّين سام إلى المدينة، فملكها، وتمكّن فيها، وقطع الحمل إلى الخطا، وخطب لغياث الدّين، وصارت من جملة بلاد الإسلام بعد أن كانت في طاعة الكافر.

ذكر انهزام الخطا من الغُورية

وفي هذه السنة عبر الخطا نهر جيحُونَ إلى ناحية خُراسان، فعاثوا في البلاد وأفسدوا، فلقيهم عسكر غياث الدّين الغوريّ وقاتلهم فانهزم الخطا.

وكان سبب ذلك أن خُوارزم شاه تكش كان قد سار إلى بلد الرَّيّ، وهمذان وأصفهان وما بينهما من البلاد، وملكها، وتعرّض إلى عساكر الخليفة، وأظهر طلب السلطنة والخطبة ببغداد، فأرسل الخليفة إلى غياث الدّين ملك الغُور وغَزْنة [يأمره][2] بقصد بلاد خُوارزم شاه [ليعود عن قصد العراق، وكان خُوارزم شاه][2] قد عاد إلى خُوارزم، فراسله غياث الدّين يقبّح له فعله، ويتهدّده بقصد بلاده وأخذها، فأرسل خُوارزم شاه إلى الخطا يشكو إليهم من غياث الدّين، ويقول: إن لم تدركوه بإنفاذ العساكر، وإلاّ أخذ غياث الدّين بلاده، كما أخذ مدينة بلْخ، وقصد بعد ذلك بلادهم، ويتعذّر عليهم منعه، ويعجزون عنه، ويضعفون عن ردّه عمّا ورء النهر؛ فجهّز ملك الخطا جيشاً كثيفاً، وجعل مقدّمهم المعروف بطاينكوا، وهو كالوزير له، فساروا وعبروا جيحون في جُمادى الآخرة، وكان الزمان شتاء، وكان شهاب الدّين الغوريّ أخو غياث الدّين ببلاد الهند، والعساكر معه، وغياث الدّين به من النقرس ما يمنعه من الحركة، إنّما يُحمل في محفّة، والذي يقود الجيش ويباشر الحروب أخوه شهاب

---

(١) مفرّج الكروب ٣/٧٨، ٧٩، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٩٤هـ.) ص ١٦.

(٢) من الباريسية، والنسخة رقم ٧٤٠.

الدّين، فلمّا وصل الخطا إلى جيحون سار خُوارزم شاه إلى طوس، عازماً على قصد هَرَاة ومحاصرتها، وعبر الخطا النهر، ووصلوا إلى بلاد الغور مثل: كُرزُبان وسرقان وغيرهما، وقتلوا وأسروا ونهبوا وسبوا كثيراً لا يُحصى، فاستغاث الناس بغياث الدّين، فلم يكن عنده من العساكر ما يلقاهم بها، فراسل الخطا بهاءَ الدّين سام ملك باميان يأمرونه بالإفراج عن بلْخ، أو أنّه يحمل ما كان مَن قبله يحمله من المال، فلم يُجِبْهم إلى ذلك.

وعظُمت المصيبة على المسلمين بما فعله الخطا، فانتدب الأمير محمّد بن جربك[1] الغوريّ، وهو مقطع الطالقان من قبل غياث الدّين، وكان شجاعاً، وكاتب الحسين بن خرميل، وكان بقلعة كُرزُبان، واجتمع معهما الأمير حرّوش[2] الغوريّ، وساروا بعساكرهم إلى الخطا، فبيّتوهم، وكبسوهم ليلاً، ومن عادة الخطا أنّهم لا يخرجون من خيامهم ليلاً، ولا يفارقونها، فأتاهم هؤلاء الغوريّة وقاتلوهم، وأكثروا القتل في الخطا، وانهزم مَن سلم منهم من القتل، وأين ينهزمون والعسكر الغوريّ خلفهم، وجيحون بين أيديهم؟ وظنّ الخطا أنّ غياث الدّين قد قصدهم في عساكرهم، فلمّا أصبحوا، وعرفوا مَن قاتلهم، وعلموا أنّ غياث الدّين بمكانه، قويت قلوبهم، وثبتوا [واقتتلوا] عامّة نهارهم فقُتل من الفريقَيْن خلق عظيم، ولحِقت المتطوّعة بالغوريّين، وأتاهم مدد من غياث الدّين وهم في الحرب، فثبت المسلمون، وعظُمت نكايتهم في الكفّار.

وحمل الأمير حرّوش[2] على قلب الخطا، وكان شيخاً كبيراً، فأصابه جراحة تُوفّي منها، ثمّ إنّ محمود بن جربك[3] وابن خرميل حملا في أصحابهما، وتنادوا: لا يرمِ أحد بقوس، ولا يطعن برمح؛ وأخذوا اللُّتُوت، وحملوا على الخطا فهزموهم[4] وألحقوهم بجيحون، فمَن صبر قُتل، ومَن ألقى نفسه في الماء غرق.

ووصل الخبر إلى ملك الخطا فعظُم عليه وأرسل إلى خُوارزم شاه يقول له: أنت قتلتَ رجالي، وأريد عن كلّ قتيل عشرة آلاف دينار؛ وكان القتلى اثني عشر ألفاً،

---

(١) في (أ): «حرنك»، والمثبت من (ب)

(٢) في (أ): «حروس».

(٣) في (أ): «جرنك».

(٤) في الأوربية: «فهزمهم».

وأنفذ إليه مَن ردّه إلى خُوارزم، وألزموه بالحضور عنده، فأرسل حينئذٍ خُوارزم شاه إلى غياث الدّين يُعرّفه حاله مع الخطا، ويشكو إليه ويستعطفه غير مرّة، فأعاد الجواب يأمره بطاعة الخليفة، وإعادة ما أخذه الخطا من بلاد الإسلام، فلم ينفصل بينهما حال.

ذكر مُلك خوارزم شاه مدينة بُخارى

لمّا ورد رسول ملك الخطا على خُوارزم شاه بما ذكرناه، أعاد الجواب: إنّ عسكرك إنّما قصد انتزاع بلْخ، ولم يأتوا إلى نُصرتي، ولا اجتمعتُ بهم، ولا أمرتُهم بالعبور، وإن كنت فعلت ذلك، فأنا مقيم بالمال المطلوب منّي، ولكن حيث عجزتم أنتم عن الغوريّة عُدْتم عليّ بهذا القول وهذا المطلب، وأمّا أنا فقد أصلحتُ الغوريّة، ودخلتُ في طاعتهم، ولا طاعة لكم عندي.

فعاد الرسول بالجواب، فجهّز ملك الخطا جيشاً عظيماً وسيّره إلى خُوارزم فحصروها، فكان خُوارزم شاه يخرج إليهم كلّ ليلة، ويقتل منهم خلقاً؛ وأتاه من المتطوّعة خلق كثير، فلم يزل هذا فعله بهم حتّى أتى على أكثرهم، فدخل[1] الباقون إلى بلادهم، ورحل خُوارزم شاه في آثارهم، وقصد بخارى فنازلها وحصرها، وامتنع أهلها منه، وقاتلوه مع الخطا، حتّى إنّهم أخذوا كلباً أعور وألبسوه[2] قباءً وقَلَنْسُوة، وقالوا: هذا خُوارزم شاه، لأنّه كان أعور، وطافوا به على السور، ثمّ ألقوه في منجنيق [إلى][3] العسكر، وقالوا: هذا سلطانكم. وكان الخُوارزميّون يسبّونهم ويقولون: يا أجناد الكفّار، أنتم قد ارتددتم عن الإسلام؛ فلم يزل هذا دأبهم حتّى ملك خُوارزم شاه البلد، بعد أيّام يسيرة، عَنوةً وعفا عن أهله، وأحسن إليهم، وفرّق فيهم مالاً كثيراً، وأقام به مدّة ثمّ عاد إلى خُوارزم[4].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في ذي الحجّة، تُوفّي أبو طالب يحيى بن سعيد بن زيادة، كاتب

---

(١) في (أ): «فرحل»، وفي (ب): «فانهزم».

(٢) من (أ).

(٣) في (أ): «ورموه إلى».

(٤) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٩٤هـ.) ص ١٥، ١٦، البداية والنهاية ١٣/١٦، ١٧، نهاية الأرب ٢٧/٢٠٤.

الإنشاء بديوان الخليفة، وكان عالماً فاضلاً، له كتابة حسنة، وكان رجلاً عاقلاً خيّراً، كثير النفع للناس، وله شِعر جيّد.

وفيها حصر الملك العادل أبو بكر بن أيّوب قلعة ماردين في شهر رمضان، وقاتل مَن بها، وكان صاحبها حسام الدّين (يولق)[1] أرسلان بن إيلغازي بن ألبي بن تِمرتاش بن إيلغازي بن أرتق، كلّ هؤلاء ملوك ماردين، وقد تقدّم من أخبارهم ما يُعلم به محلّهم، وكان صبيّاً والحاكم في بلده ودولته مملوك أبيه النظام يرنقش، وليس لصاحبه معه حُكمٌ البتّة في شيءٍ من الأمور، ولمّا حصر العادل ماردين ودام عليها سلّم إليه بعض أهلها الربض بمخامرة بينهم، فنهب العسكر أهله نهباً قبيحاً، وفعلوا بهم أفعالاً عظيمة لم يُسمع بمثلها، فلمّا تسلّم الربض تمكّن من حصر القلعة وقطع الميرة عنها، وبقي عليها إلى أن رحل عنها سنة خمس وتسعين [وخمسمائة] على ما نذكره إن شاء اللّه[2].

[الوفيات]

وفيها[3] تُوفّي الشيخ أبو عليّ الحسن بن مسلم بن أبي الحسن القادسيّ[4] الزاهد، المقيم ببغداد، والقادسية[5] التي يُنسب إليها قرية بنهر عيسى من أعمال بغداد، وكان من عباد الله الصالحين العاملين، ودُفن بقريته.

وأبو المجد عليُّ بن أبي الحسن عليّ بن الناصر بن محمّد الفقيه الحنفيّ مدرّس أصحاب أبي حنيفة ببغداد، وكان من أولاد محمّد بن الحنفيّة ابن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه.

---

(١) من (أ).
(٢) مرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٤٥٩، مفرّج الكروب ٣/ ٨٠، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٩٤هـ.) ص ١٦.
(٣) من (أ).
(٤) في (ب): «الفارسي».
(٥) في (ب): «الغارسية».

٥٩٥

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة

ذكر وفاة الملك العزيز ومُلك أخيه الأفضل ديار مصر

في هذه السنة، في العشرين من المحرّم، تُوفّي الملك العزيز عثمان[١] بن صلاح الدّين يوسف بن أيّوب، صاحب ديار مصر، وكان سبب موته أنّه خرج إلى الصيد، فوصل إلى الفيّوم متصيّداً. فرأى ذئباً، فركض[٢] فرسه في طلبه، فعثر الفرس فسقط عنه في الأرض ولحِقَتْه حُمّى، فعاد إلى القاهرة مريضاً، فبقي كذلك إلى أن تُوفّي، فلمّا مات كان الغالب على أمره مملوك والده فخر الدّين جهاركس[٣]، وهو الحاكم في بلده، فأحضر إنساناً كان عندهم من أصحاب الملك العادل أبي بكر بن أيّوب، وأراه العزيز ميّتاً، وسيّره إلى العادل وهو يحاصر ماردين، كما ذكرناه، ويستدعيه ليملّكه البلاد. فسار القاصد مُجِدّاً، فلمّا كان بالشام رأى بعض أصحاب الأفضل عليّ بن صلاح الدّين، فقال له: قل لصاحبك إنّ أخاه العزيز تُوفّي، وليس في البلاد مَن يمنعها، فليسِرْ إليها فليس دونها مانع.

وكان الأفضل محبوباً إلى الناس يريدونه، فلم يلتفت الأفضل إلى هذا القول، وإذا قد وصله رُسُل الأمراء من مصر يدعونه[٤] إليهم ليملّكوه، وكان السبب في ذلك أنّ الأمير سيف الدّين يازكج[٥] مقدّم الأسديّة، والفرقة الأسديّة والأمراء الأكراد يريدونه ويميلون إليه، وكان المماليك الناصريّة الذين هم ملك أبيه يكرهونه، فاجتمع

---

(١) أنظر عن (وفاة الملك العزيز) في: تاريخ الإسلام (حوادث ٥٩٥هـ.) ص ١٩ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٢) في (ب): «فركض خلفه فعثر».

(٣) في (أ): «إياس جركس»، وفي (ب): «انارحركس»، وفي المرآة: «سركش»، وفي تاريخ الإسلام (٥٩٥هـ.) ص ٢٠ «شركس».

(٤) في (ب): «يستدعونه».

(٥) في (ب): «ايازكش»، وكذا في: مرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٤٦١.

سيف الدّين، مقدّم الأسديّة، وفخر الدّين جهاركس، مقدَّم الناصريّة، ليتّفقوا على مَن يولّونه المُلك، فقال[1] فخر الدّين: نولّي ابن الملك العزيز؛ فقال سيف الدّين: إنّه طفل، وهٰذه البلاد ثغر الإسلام، ولا بدّ من قيّم بالملك يجمع العساكر، ويقاتل[2] بها، والرأي أنّنا نجعل المُلك في هذا الطفل الصغير، ونجعل معه بعض أولاد صلاح الدّين يدبّره إلى أن يكبر، فإنّ العساكر لا تطيع غيرهم، ولا تنقاد لأمير؛ فاتّفقا على هذا، فقال جهاركس: فمن يتولّى هذا؟ فأشار يازكج بغير الأفضل ممّن بينه وبين جهاركس منازعة لئلاّ يتّهم وينفر جهاركس عنه، فامتنع من ولايته، فلم يزل يذكر من أولاد صلاح الدّين واحداً بعد آخر إلى أن ذكر آخرهم الأفضل، فقال جهاركس: هو بعيد عنا؛ وكان بصَرْخَد مقيماً فيها من حين أُخذت منه دمشق، فقال يازكج: نرسل إليه مَن يطلبه مُجِدّاً؛ فأخذ جهاركس يغالطه، فقال يازكج: نمضي إلى القاضي الفاضل ونأخذ رأيه؛ فاتّفقا على ذلك، (وأرسل يازكج يعرّفه ذلك، ويشير بتمليك الأفضل)[3]، فلمّا اجتمعا عنده، وعرّفاه صورة الحال، أشار بالأفضل، فأرسل يازكج في الحال القصّاد وراءه، فسار عن صَرْخَد لليلتَيْن بقيتا من صفر، متنكّراً في تسعة عشر نفساً، لأنّ البلاد كانت للعادل، ويضبط نوّابه الطرق، لئلاّ يجوز إلى مصر ليجيء العادل ويملكها[4].

فلمّا قارب الأفضل القدس، وقد عدل عن الطريق المؤدّي إليه، لقيه فارسان قد أُرسلا إليه من القدس، فأخبراه أنّ مَن بالقدس قد صار في طاعته، وجدّ في السير، فوصل إلى بِلْبِيس خامس ربيع الأوّل، ولقيه إخوته، وجماعة الأمراء المصريّة، وجميع الأعيان، فاتّفق أنّ أخاه الملك المؤيّد مسعوداً صنع له طعاماً، وطنع له فخر الدّين مملوك أبيه طعاماً، فابتدأ بطعام أخيه ليمين حلفها أخوه أنّه يبدأ به، فظنّ جهاركس أنّه فعل هذا انحرافاً عنه وسوء اعتقادٍ فيه، فتغيّرت نيّته، وعزم على الهرب، فحضر عند الأفضل وقال: إنّ طائفة من العرب قد اقتتلوا، ولئن لم تمض إليهم تصلح بينهم يؤدّ ذلك إلى فساد[5]؛ فأذِن له الأفضل في المُضِيّ إليهم، ففارقه، وسار مُجِدّاً حتّى وصل

---

(١) من (أ).

(٢) في (أ): [ونقاتل].

(٣) من (أ).

(٤) مفرّج الكروب ٣/٨٨، ٨٩، نهاية الأرب ٢٨/٤٥٦، ٤٥٧.

(٥) في (أ): «بينهم أدى إلى فساد».

إلى البيت المقدّس، ودخله، وتغلّب عليه، ولحِقه جماعة من الناصريّة منهم قراجة الزره كش[1]، وسرا سنقر، وأحضروا عندهم ميموناً القصْريّ صاحب نابلس، وهو أيضاً من المماليك الناصريّة، فقويت شوكتهم به، واجتمعت كلمتهم على خلاف الأفضل، وأرسلوا إلى الملك العادل وهو على ماردين يطلبونه إليهم ليدخلوا معه إلى مصر ليملكوها، فلم يسر إليهم لأنّه كانت أطماعه قد قويت في أخذ ماردين، وقد عجز مَن بها عن حفظها، فظنّ أنّه يأخذها، والذي يريدونه منه لا يفوته.

وأمّا الأفضل فإنّه دخل إلى القاهرة سابع ربيع الأوّل، وسمع بهرب جهاركس، فأهمّه ذلك، وتردّدت الرسل بينه[2] وبينهم ليعودوا إليه، فلم يزدادوا إلاّ بُعداً، ولحِق بهم جماعة من الناصريّة أيضاً، فاستوحش الأفضل من الباقين، فقبض عليهم، وهم شقيرة[3] وأيبَك فطيس، وألبكي الفارس، وكلّ هؤلاء بطلٌ مشهور ومقدَّم مذكور، سوى من ليس مثلهم في التقدّم وعُلُوّ القدر، وأقام الأفضل بالقاهرة وأصلح الأمور، وقرّر القواعد، والمرجع في جميع الأمور إلى سيف الدّين يازكج.

ذكر حصر الأفضل مدينة دمشق وعوده عنها

لمّا ملك الأفضل مصر، واستقرّ بها، ومعه ابن أخيه الملك العزيز، اسم الملك له لصغره، واجتمعت الكلمة على الأفضل بها، وصل إليه رسول أخيه الملك الظاهر غازي، صاحب حلب، ورسل ابن عمّه أسد الدّين شيركوه بن محمّد بن شيركوه، صاحب حمص، يحثّانه على الخروج إلى دمشق، واغتنام الفرصة بغيبة العادل عنها، وبذلا له المساعدة بالمال والنفس والرجال، فبرز من مصر، منتصف جمادى الأولى من السنة، على عزم المسير إلى دمشق، وأقام بظاهر القاهرة إلى ثالث رجب، ورحل فيه وتعوّق في مسيره، ولو بادر وعجّل المسير لملك دمشق، لكنه تأخّر، فوصل إلى دمشق ثالث عشر شعبان، فنزل عند جسر الخشب على فرسخ ونصف من دمشق، وكان العادل قد أرسل إليه نوّابه بدمشق يعرّفونه قصد الأفضل لهم، ففارق ماردين وخلّف ولده الملك الكامل محمّداً في جميع العساكر على حصارها، وسار جريدة فجدّ في السير، فسبق الأفضل، فدخل دمشق قبل الأفضل بيومَيْن.

---

(١) في الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠ «الركرمش».

(٢) في (أ): «بينه وبين الأمراء»، وفي (ب): «إليه كل منهم فلم».

(٣) في النسخة ٧٤٠ «شقير»، وفي الباريسية: «سنقر».

وأمّا الأفضل فإنّه تقدّم إلى دمشق من الغد، وهو رابع عشر شعبان، ودخل ذلك اليوم بعينه طائفة يسيرة من عسكره إلى عسقلان إلى دمشق من باب السلامة، وسبب دخولهم أنّ قوماً من أجناده، ممّن بيوتهم مجاورة للباب، اجتمعوا بالأمير مجد الدّين أخي الفقيه عيسى الهكّاريّ، وتحدّثوا معه في أن يقصد هو والعسكر باب السلامة ليفتحوه لهم، فأراد مجد الدّين أن يختصّ بفتح الباب وحده[1]، فلم يُعْلم الأفضل، ولا أخذ معه أحداً من الأمراء، بل سار وحده بمفرده، ومعه نحو خمسين فارساً من أصحابه، ففُتح له الباب، فدخله هو ومَن معه، فلمّا رآهم عامّة البلد نادوا بشعار الأفضل واستسلم مَن به من الجُند، ونزلوا عن الأسوار، وبلغ الخبر إلى الملك العادل، فكاد يستسلم، وتماسك.

وأمّا الذين دخلوا البلد فإنّهم وصلوا إلى باب البريد، فلمّا رأى عسكر العادل بدمشق قلّة عددهم، وانقطاع مددهم، وثبوا بهم وأخرجوهم منه، وكان الأفضل قد نصب خِيَمه بالميدان الأخضر، وقارب عسكره الباب الحديد، وهو من أبواب القلعة، فقدّر الله تعالى أن أشير على الأفضل بالانتقال إلى ميدان الحصى، ففعل ذلك، فقويت نفوس مَن فيه، وضعُفت نفوس العسكر المصريّ، ثمّ إنّ الأمراء الأكراد منهم تحالفوا فصاروا يداً واحدةً يغضبون لغضب أحدهم، ويرضون لرضى أحدهم، فظنّ الأفضل وباقي الأسديّة أنّهم فعلوا بقاعدة بينهم وبين الدّمشقيّين، فرحلوا من موضعهم، وتأخّروا في العشرين من شعبان، ووصل أسد الدّين شيركوه صاحب حمص إلى الأفضل الخامس والعشرين من شعبان، ووصل بعده الملك الظاهر، صاحب حلب، ثاني عشر شهر رمضان، وأرادوا الزحف إلى دمشق، فمنعهم الملك الظاهر مكراً بأخيه وحسداً له، ولم يشعر أخوه الأفضل بذلك.

وأمّا الملك العادل فإنّه لمّا رأى كثرة العساكر وتتابع الأمداد إلى الأفضل عظُم عليه، فأرسل إلى المماليك الناصريّة بالبيت المقدّس يستدعيهم إليه، فساروا سلخ شعبان، فوصل خبرهم إلى الأفضل، فسيّر أسد الدّين، صاحب حمص، ومعه جماعة من الأمراء إلى طريقهم ليمنعوهم، فسلكوا غير طريقهم، فجاء أولئك ودخلوا دمشق خامس رمضان، فقوي العادل بهم قوّة عظيمة، وأيس الأفضل ومَن معه من دمشق،

---

(١) في (ب): «يختص بالفتح وحده».

وخرج عسكر دمشق في شوّال، فكبسوا العسكر المصريّ، فوجدوهم قد حذروهم، فعادوا عنهم خاسرين.

وأقام العسكر على دمشق ما بين قوّة وضعف، وانتصار وتخاذل، حتّى أرسل الملك العادل خلف ولده الملك الكامل محمّد، وكان قد رحل عن ماردين، على ما نذكره إن شاء الله تعالى، وهو بحرّان، فاستدعاه إليه بعسكره، فسار على طريق البرّ، فدخل إلى دمشق ثاني عشر صفر سنة ستّ وتسعين وخمسمائة، فعند ذلك رحل العسكر عن دمشق إلى ذيل جبل الكُسْوة سابع عشر صفر، واستقرّ أن يقيموا بحَوران حتّى يخرج الشتاء، فرحلوا إلى رأس الماء، وهو موضع شديد البرد، فتغيّر العزم عن المقام، واتّفقوا على أن يعود كلّ منهم إلى بلده، فعاد الظاهر، صاحب حلب، وأسد الدّين، صاحب حمص، إلى بلادهما، وعاد الأفضل إلى مصر[1]، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه محمّد

في هذه [السنة]، ثامن عشر ربيع الآخر، وقيل جُمادى الأولى، تُوفّي أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف[2] بن عبد المؤمن، صاحب المغرب والأندلس، بمدينة سلا، وكان قد سار إليها من مَرّاكُش، وكان قد بنى مدينة محاذية لسلا، وسمّاها المَهدِيّة، من أحسن البلاد وأنزهها، فسار إليها يشاهدها، فتُوفّي بها؛ وكانت ولايته خمس عشرة سنة؛ وكان ذا جهاد للعدوّ، ودين، وحُسن[3] سيرة، وكان يتظاهر بمذهب الظاهريّة، وأعرض عن مذهب مالك، فعظُم أمر الظاهريّة في أيّامه، وكان

---

(١) أنظر: مرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٤٦١ ـ ٤٦٣، ومفرّج الكروب ٣/ ٩٣ ـ ١٠١، والتاريخ المنصوري ٩، ١٠، وزبدة الحلب ٣/ ١٤٣، وتاريخ الزمان ٢٣١، والدر المطلوب ١٣٨، ١٣٩، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٩٥، ٩٦، ونهاية الأرب ٢٨/ ٤٥٦، ٤٥٧، ودول الإسلام ٢/ ١٠٤، ١٠٥، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٩٥هـ.) ص ٢٠، ٢١، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١١٣، ١١٤، والبداية والنهاية ١٣/ ١٨، ١٩، والعسجد المسبوك ٢/ ٢٤٨، ٢٤٩، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٣٥، ٣٣٦، والسلوك ج ١، ق ١/ ١٤٩، والنجوم الزاهرة ٦/ ١٤٧ ـ ١٤٩، وشفاء القلوب ٢٠٥ ـ ٢٠٧، وتاريخ ابن الفرات ج ٤، ق ٢/ ١٤٩ ـ ١٥٧، وتاريخ ابن سباط ١/ ٢٢٤..

(٢) أنظر عن (يعقوب بن يوسف) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥٩٥هـ.) ص٢١٣، رقم٢٧٧، وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٣) من (أ).

بالمغرب منهم خلق كثير يقال لهم الجرميّة[١] منسوبون إلى ابن محمّد بن جرم، رئيس الظاهريّة[٢]، إلاّ أنّهم مغمورون[٣] بالمالكية. ففي أيّامه ظهروا وانتشروا، ثمّ في آخر أيّامه استقضى الشافعيّة على بعض البلاد ومال إليهم.

ولمّا مات قام ابنه أبو عبد الله محمّد بالمُلك بعده، وكان أبوه قد ولاّه عهده في حياته، فاستقام المُلك له وأطاعه الناس، وجهّز جمعاً من العرب وسيّرهم إلى الأندلس احتياطاً من الفرنج.

ذكر عصيان أهل المهديّة على يعقوب وطاعتها لولده محمّد

كان أبو يوسف يعقوب، صاحب المغرب، لمّا عاد من إفريقية، كما ذكرناه سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، استعمل أبا سعيد عثمان، وأبا عليّ يونس بن عمر اينتي[٤]، وهما وأبوهما من أعيان الدّولة، فولّى عثمان مدينة تونس، وولّى أخاه المهديّة، وجعل قائد الجيش بالمهديّة محمّد بن عبد الكريم، وهو شجاع مشهور، فعظُمت نكايته في العرب، فلم يبق منهم إلاّ مَن يخافه.

فاتّفق أنّه أتاه الخبر بأنّ طائفة من عَوْف نازلون[٥] بمكان، فخرج إليهم، وعدل عنهم حتّى جازهم، ثمّ أقبل عائداً يطلبهم، وأتاهم الخبر بخروجه إليهم، فهربوا من بين يديه، فلقوه أمامهم، فهربوا وتركوا المال والعيال من غير قتال، فأخذ الجميع ورجع إلى المهديّة وسلّم العيال إلى الوالي، وأخذ من الأسلاب والغنيمة ما شاء، وسلّم الباقي إلى الوالي وإلى الجُند.

ثمّ إنّ العرب من بني عوف قصدوا أبا سعيد بن عمر اينتي[٤]، فوحّدوا وصاروا من حزب الموحّدين، واستجاروا به في ردّ عيالهم وأموالهم، فأحضر محمّد بن عبد الكريم، وأمره بإعادة ما أخذ لهم من النَّعَم، فقال: أخذه الجُند، ولا أقدر على ردّه؛ فأغلظ له في القول، وأراد أن يبطش به، فاستمهله إلى أن يرجع إلى المهديّة ويستردّ من الجُند ما يجده عندهم، وما عدم منه غرِم العوض عنه من ماله، فأمهله، فعاد إلى

---

(١) في (ب): «الخرمية».
(٢) زاد في (ب): «في زمانه».
(٣) في الأوربية: «معمورونه» بالعين المهملة.
(٤) في (ب): «عمرهتني».
(٥) في الأوربية «نازلين».

المهديّة وهو خائف، فلمّا وصلها جمع أصحابه وأعلمهم ما كان من أبي سعيد، وحالفهم على موافقته، فحلفوا له، فقبض على أبي عليّ يونس، وتغلّب على المهديّة وملكها، فأرسل إليه أبو سعيد في معنى إطلاق أخيه يونس، فأطلقه على اثني عشر ألف دينار، فلمّا أرسلها إليه أبو سعيد فرّقها في الجُند وأطلق يونس، وجمع أبو سعيد العساكر، وأراد قصْده ومحاصرته، فأرسل محمّد بن عبد الكريم إلى عليّ بن إسحاق الملثّم فحالفه واعتضد به، فامتنع أبو سعيد من قصده.

ومات يعقوب، ووليَ ابنه محمّد، فسيّر عسكراً مع عمّه في البحر، وعسكراً آخر في البرّ مع ابن عمّه الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن، فلمّا وصل عسكر البحر إلى بجاية، وعسكر البرّ إلى قُسَنْطِينَة الهوى، هرب الملثّم ومَن معه من العرب من بلاد إفريقية إلى الصحراء، ووصل الأسطول إلى المهديّة، فشكا محمّد بن عبد الكريم ما لقي من أبي سعيد، وقال[1]: أنا على طاعة أمير المؤمنين محمّد، ولا أسلّمها إلى أبي سعيد، وإنّما أسلّمها إلى من يصل من أمير المؤمنين؛ فأرسل محمّد مَن يتسلّمها منه، وعاد إلى الطاعة[2].

ذكر رحيل عسكر الملك العادل عن ماردين

في هذه السنة زال الحصار عن ماردين، ورحل عسكر الملك العادل عنها مع ولده الملك الكامل؛ وسبب ذلك أنّ الملك العادل لمّا حصر ماردين عظُم ذلك على نور الدّين، صاحب الموصل، وغيره من ملوك ديار بكر والجزيرة، وخافوا إنْ ملكها أن لا يُبقي عليهم، إلاّ أنّ العجز عن منعه [حملهم][3] على طاعته؛ فلمّا تُوفّي العزيز، صاحب مصر، وملك الأفضل مصر، كما ذكرناه، وبينه وبين العادل اختلافٌ، أرسل أحد عسكر مصر من عنده، وأرسل إلى نور الدّين، صاحب الموصل، وغيره من الملوك يدعوهم إلى موافقته، فأجابوه إلى ذلك، فلمّا رحل الملك العادل عن ماردين إلى دمشق، كما ذكرناه، برز نور الدّين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود، صاحب الموصل، عنها ثاني شعبان، وسار إلى دُنَيسر فنزل عليها، ووافقه ابن عمّه قُطب الدّين محمّد بن زنكي بن مودود، صاحب سنجار، وابن عمّه الآخر مُعزّ الدّين سنجر شاه بن

---

(١) من (أ).

(٢) المعجم ٣١٤، نهاية الأرب ٢٤/٣٣٩، ٣٤٠، الاستقصا ٢/١٩١، تاريخ ابن خلدون ٦/٢٤٨.

(٣) من الباريسية.

غازي بن مودود، صاحب جزيرة ابن عمر، فاجتمعوا كلّهم بدنيسر إلى أن عيّدوا عيد الفِطْر، ثمّ ساروا عنها سادس شوّال ونزلوا بحَرْزَم[1]، وتقدّم العسكر إلى تحت الجبل ليرتادوا موضعاً للنزول.

وكان أهل ماردين قد عدمت الأقوات عندهم، وكثُرت الأمراض فيهم، حتّى إنّ كثيراً منهم كان لا يطيق القيام، فلمّا رأى النظام، وهو الحاكم في دولة صاحبها، ذلك أرسل إلى ابن العادل في تسليم القلعة إليه إلى أجلٍ معلوم ذكره على شرط أن يتركهم يدخل إليهم من الميرة ما يقوتهم، حسبُ، فأجابهم إلى ذلك، وتحالفوا عليه، ورفعوا أعلامهم إلى رأس القلعة، وجعل ولد العادل بباب القلعة أميراً لا يترك يدخلها من الأطعمة إلاّ ما يكفيهم يوماً بيوم، فأعطى مَن بالقلعة ذلك الأمير شيئاً، فمكّنهم من إدخال الذخائر الكثيرة.

فبينما هم كذلك إذ أتاهم خبر وصول نور الدّين، صاحب الموصل، فقويت نفوسهم، وعزموا على الامتناع، فلمّا تقدّم عسكره إلى ذيل جبل ماردين، قدّر الله تعالى أنّ الملك الكامل بن العادل نزل بعسكر من ربض ماردين إلى لقاء نور الدّين وقتاله، ولو أقاموا بالربض لم يمكن نور الدّين ولا غيره الصعود إليهم، ولا إزالتهم، لكن نزلوا ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فلمّا أصحروا من الجبل اقتتلوا، وكان من عجيب الاتّفاق أنّ قُطْب الدّين، صاحب سنجار، قد واعد العسكر العادليّ أن ينهزم إذا التقوا، ولم يُعلِم بذلك أحداً من العسكر، فقدّر الله تعالى أنّه لمّا نزل العسكر العادليّ واصطفّت العساكر للقتال ألجأت[2] قُطب الدّين الضرورة بالزّحمة إلى أن وقف في سفح شعب جبل ماردين ليس إليه طريق للعسكر العادليّ، ولا يرى الحرب الواقعة بينهم وبين نور الدّين، ففاته ما أراده من الانهزام، فلمّا التقى العسكران واقتتلوا، حمل ذلك اليوم نور الدّين بنفسه، واصطلى الحرب، [فألقي] الناس أنفسهم بين يديه، فانهزم العسكر العادليّ، وصعِدوا في الجبل إلى الربض، وأُسر منهم كثير، فحُملوا إلى بين يدي نور الدّين، فأحسن إليهم، ووعدهم الإطلاق إذا انفصلوا، ولم يظنّ أنّ الملك الكامل ومَن معه يرحلون عن ماردين سريعاً، فجاءهم أمرٌ لم يكن في الحساب، فإنّ الملك الكامل لمّا صعِد إلى الربض رأى أهل القلعة قد نزلوا إلى الذين جعلهم بالربض من العسكر، فقاتلوهم ونالوا منهم ونهبوا، فألقى الله الرعب في قلوب

---

(١) في الباريسية والنسخة ٧٤٠ «سحررم».

(٢) في الأوربية: «ألجت».

الجميع، فأعملوا رأيهم على مفارقة الربض ليلاً، فرحلوا ليلة الاثنين سابع شوّال، وتركوا كثيراً من أثقالهم ورحالهم وما أعدّوه، فأخذه أهل القلعة، ولو ثبت العسكر العادليّ بمكانه لم يمكّن أحداً[1] أن يقرب منهم.

ولمّا رحلوا نزل صاحب ماردين حسام الدّين يولق بن[2] إيلغازي إلى نور الدّين، ثمّ عاد إلى حصنه، وعاد أتابك إلى دُنَيسر، ورحل عنها إلى رأس عَين على عزم قصد حَرّان وحصرها. فأتاه رسولٌ من الملك الظاهر يطلب الخطبة والسّكّة وغير ذلك، فتغيّرت نيّة نور الدّين، وفتر عزمه عن نُصرتهم، فعزم على العَود إلى الموصِل، فهو يقدّم إلى العرض رجْلاً ويؤخّر أخرى إذ أصابه مرض، فتحقّق عزْم العَود إلى الموصل، فعاد إليها، وأرسل رسولاً إلى الملك الأفضل والملك الظاهر يعتذرعن عَوده بمرضه، فوصل الرسول ثاني ذي الحجّة إليهم وهم على دمشق.

وكان عَود نور الدّين من سعادة الملك العادل، فإنّه كان هو وكلّ مَن عنده ينتظرون ما يجيء من أخباره، فإنّ مَن بَحرّان استسلموا فقدّر الله تعالى أنّه عاد، فلمّا عاد جاء الملك الكامل إلى حرّان، وكان قد سار عن[3] ماردين إلى ميّافارقين، فلمّا رجع نور الدّين سار الكامل إلى حَرّان، وسار إلى أبيه بدمشق على ما ذكرناه، فازداد به قوّة، والأفضل ومَن معه ضُعْفاً[4].

ذكر الفتنة بفِيروزكُوه من خُراسان

في هذه السنة كانت فتنة عظيمة بعسكر غياث الدّين، ملك الغور وغَزْنة، وهو بفِيرُوزكوه، عمّت الرعيّة والملوك والأمراء، وسببها أنّ الفخر محمّد بن عمر بن الحسين الرازيّ، الإمام المشهور، الفقيه الشافعيّ، كان قدِم إلى غياث الدّين مفارقاً لبهاء الدّين سام، صاحب باميان، وهو ابن أخت غياث الدّين، فأكرمه غياث الدّين، واحترمه، وبالغ في إكرامه، وبنى له مدرسة بهَراة بالقرب من الجامع، فقصده الفقهاء من البلاد، فعظُم ذلك على الكرّاميّة[5]، وهم كثيرون بهَراة؛ وأمّا الغوريّة فكلّهم

---

(١) في الأوربية: «أحد».

(٢) في (أ): «سولو أرسلان بن».

(٣) في الأوربية: «على».

(٤) مفرّج الكروب ٣/١٠٢، نهاية الأرب ٢٨/٤٥٨، ٤٥٩.

(٥) أنظر عن الكرّامية في: الفرق بين الفِرَق للبغدادي ١٣٠ ـ ١٣٨.

كرّاميّة، وكرهوه، وكان أشدّ الناس عليه الملك ضياء الدّين، وهو ابن عمّ غياث الدّين، وزوج ابنته، فاتّفق أن حضر الفقهاء من الكرّاميّة والحنفيّة والشافعيّة عند غياث الدّين بفيروزكوه للمناظرة، وحضر فخر الدّين الرازيّ والقاضي مجد الدّين عبد المجيد بن عمر، المعروف بابن القُدْوة، وهو من الكرّاميّة الهيصميّة، وله عندهم محلّ كبير لزُهده وعِلمه وبيته، فتكلّم الرازيّ، فاعترض عليه ابن القدوة، وطال الكلام، فقام غياث الدّين فاستطال عليه الفخر، وسبّه وشتمه، وبالغ في أذاه، وابن القدوة لا يزيد على أن يقول لا يفعل مولانا إلاّ[1] وأخذك الله؛ أستغفر الله؛ فانفصلوا على هذا.

وقام ضياء الدّين في هذه الحادثة وشكا إلى غياث الدّين، وذمّ الفخر، ونسبه إلى الزّندقة ومذهب الفلاسفة، فلم يصْغ غياث الدّين إليه. فلمّا كان الغد وعظ ابن عمّ المجد بن القدوة بالجامع، فلمّا صعِد المنبر قال، بعد أن حمد الله وصلّى على النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم: لا إله إلاّ الله، ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ، وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ، فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[2]؛ أيّها الناس، إنّا لا نقول إلاّ ما صحّ عندنا عن رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، وأمّا عِلم أرسطاطاليس، وكُفريّات ابن سينا، وفلسفة الفارابيّ، فلا نعلمها، فلأيّ حال يُشتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام يذبّ[3] عن دين الله، وعن سُنّة نبيّه! وبكى وضجّ الناس، وبكى الكرّاميّة واستغاثوا، وأعانهم من يؤثر بُعدَ الفخر الرازيّ عن السلطان، وثار الناس من كلّ جانب، وامتلأ البلد فتنةً، وكادوا يقتتلون، ويجري ما يهلك فيه خلق كثير، فبلغ ذلك السلطانَ، فأرسل جماعة من عنده إلى الناس وسكّنهم، ووعدهم بإخراج الفخر من عندهم، وتقدّم إليه بالعَود إلى هَراة، فعاد إليها[4].

ذكر مسير خُوارزم شاه إلى الرَّيّ

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، سار خُوارزم شاه علاء الدّين تكش إلى الرَّيّ وغيرها من بلاد الجبل، لأنّه بلغه أنّ نائبه بها مياجق قد تغيّر عن طاعته، فسار إليه،

---

(١) في (أ): «مولانا لا يزيده».

(٢) سورة آل عمران، الآية ٥٣.

(٣) في الأوربية: «ويذبّ».

(٤) المختار من تاريخ ابن الجزري ٦٢ ـ ٦٤، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٩٥هـ.) ص ١٨، ١٩، اللمعات البرقية في النكات التاريخية لابن طولون ٢٢، ٢٣.

فخافه مياجق، فجعل يفرّ من بين يديه، وخُوارزم شاه في طلبه يدعوه إلى الحضور عنده، وهو يمتنع، فاستأمن أكثر أصحابه إلى خُوارزم شاه، وهرب هو، فحصل بقلعة من أعمال[1] مازَندَران فامتنع بها، فسارت العساكر في طلبه فأُخذ منها وأُحضر بين يدي خُوارزم شاه فأمر بحبسه بشفاعة أخيه أقجة.

(وسُيِّرت الخِلع من الخليفة لخُوارزم شاه ولولده قُطْب الدّين محمّد)[2]، وتقليد بما بيده من البلاد، فلبس الخِلعة، واشتغل بقتال الملاحدة، فافتتح قلعة على باب قَزوين تسمّى أرسلان كشاه[3]، وانتقل إلى حصار ألمُوت، فقُتل عليها صدر الدّين محمّد بن الوَزّان رئيس الشافعيّة بالرّيّ، وكان قد تقدّم عنده تقدّماً عظيماً، قتله الملاحدة، وعاد خُوارزم شاه إلى خُوارزم، فوثب الملاحدة على وزيره نظام المُلك مسعود بن عليّ فقتلوه في جمادى الآخرة سنة ستٍّ وتسعين [وخمسمائة]، فأمر تكش ولده قُطب الدّين بقصد الملاحدة، فقصد قلعة تُرْشيش[4] وهي من قلاعهم، فحصرها فأذعنوا له بالطاعة، وصالحوه على مائة ألف دينار، ففارقها، وإنّما صالحهم لأنّه بلغه خبر مرض أبيه، وكانوا يراسلونه بالصلح فلا يفعل، فلمّا سمع بمرض أبيه لم يرحل حتّى صالحهم على المال المذكوز والطاعة ورحل[5].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، تُوفّي مجاهد الدّين قايماز، رحمه الله، بقلعة الموصل، وهو الحاكم في دولة نور الدّين، والمرجوع إليه فيها، وكامن ابتداء ولايته قلعة الموصل في ذي الحجّة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، ووليَ إربل سنة تسعٍ [وخمسين] وخمسمائة، فلمّا مات زين الدّين عليّ كوجك سنة ثلاثٍ وستّين [وخمسمائة] بقي هو الحاكم فيها، ومعه مَن يختاره من أولاد زين الدّين ليس لواحد منهم معه حكم.

---

(١) في (أ): «من قلاع».

(٢) من (أ).

(٣) في الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠ «كساه»، وفي نهاية الأرب «كشاي».

(٤) في الباريسية، والنسخة رقم ٧٤٠ «رسش». قال ياقوت: تُرشيش بضم التاء وسكون الراء، وهي ناحية من أعمال نيسابور. وتكتب أيضاً طرثيث. (معجم البلدان ٢/ ٢٢ و٤/ ٣٣).

(٥) نهاية الأرب ٢٧/ ٢٠٤، ٢٠٥، المختار من تاريخ ابن الجزري ٦١، ٦٢، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٠٥.

وكان عاقلاً، ديّناً، خيّراً، فاضلاً، يعرف الفقه على مذهب أبي حنيفة، ويحفظ، من التاريخ والأشعار والحكايات، شيئاً كثيراً. وكان كثير الصوم، يصوم من كلّ سنة نحو سبعة أشهر، وله أوراد كثيرة حسنة كلّ ليلة، ويُكثر الصدقة، وكان له فراسة حسنة فيمن يستحقّ الصَدَقَة، ويعرف الفقراء المستحقّين ويبرّهم، وبنى عدّة جوامع منها الجامع الذي بظاهر الموصل بباب الجسر، وبنى الرُّبط والمدارس والخانات في الطُّرُق، وله من المعروف شيء كثير، رحمه الله، فلقد كان من محاسن الدّنيا.

وفيها فارق غياث الدّين، صاحب غَزْنة وبعض خُراسان، مذهب الكرّاميّة، وصار شافعيّ المذهب، وكان سبب ذلك أنّه كان عنده[1] إنسان يُعرف بالفخر مبارك شاه يقول الشِعر بالفارسيّة، متفنّناً في كثيرٍ من العلوم، فأوصل إلى غياث الدّين الشيخ وحيد الدّين أبا الفتح محمّد بن محمود المَرْوَرُوذيّ الفقيه الشافعيّ، فأوضح له مذهب الشافعيّ، وبيّن له فساد مذهب الكرّامية، فصار شافعيّاً، وبنى المدارس للشافعيّة، وبنى بغَزْنة مسجداً لهم أيضاً، وأكثر مراعاتهم، فسعى الكرّاميّة في أذى وحيد الدّين، فلم يقدّرهم الله تعالى على ذلك.

وقيل إنّ غيّاث الدّين وأخاه شهاب الدّين لمّا ملكا في خُراسان قيل لهما: إنّ الناس في جميع البلاد يُزْرُون على الكرّاميّة ويحتقرونهم، والرأي أن تفارقوا مذاهبهم؛ فصارا شافعيّين.

وقيل: إنّ شهاب الدّين كان حنفيّاً، والله أعلم.

[الوَفَيَات]

وفي هذه السنة تُوفّي أبو القاسم يحيى بن عليّ بن فضلان الفقيه الشافعيّ، وكان إماماً فاضلاً، ودرّس ببغداد، وكان من أعيان أصحاب [محمّد بن يحيى] نجى النَّيسابوريّ.

---

(١) في الأوربية: «عبده».

٥٩٦

ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسمائة

ذكر مُلك العادل الديار المصريّة

قد ذكرنا سنة خمسٍ وتسعين [وخمسمائة] حصر الأفضل والظاهر ولَدَي صلاح الدّين دمشق، ورحيلهما إلى رأس الماء، على عزم المقام بحَوران إلى أن يخرج الشتاء، فلمّا أقاموا برأس الماء وجد العسكر برداً شديداً، لأنّ البرد في ذلك المكان في الصيف موجود، فكيف في الشتاء، فتغيّر العزم عن المقام، واتّفقوا على أن يعود كلّ إنسان منهم إلى بلده، ويعودوا إلى الاجتماع، فتفرّقوا تاسع ربيع الأوّل، فعاد الظاهر وصاحب حمص إلى بلادهما، وسار الأفضل إلى مصر، فوصل بِلبيس، فأقام بها، ووصلته الأخبار بأنّ عمّه الملك العادل قد سار من دمشق قاصداً مصر ومعه المماليك الناصريّة، وقد حلّفوه على أن يكون ولد الملك العزيز هو صاحب البلاد، وهو المدبّر للملك، إلى أن يكبر، فساروا على هذا.

وكان عسكره بمصر قد تفرّق عن الأفضل من الخشبيّ، فسار كلّ منهم إلى إقطاعه لِيُرْبِعُوا دوابّهم، فرام الأفضل جَمْعهم من أطراف البلاد، فأعجله الأمر عن ذلك، ولم يجتمع منهم إلاّ طائفة يسيرة ممّن قرب إقطاعه، ووصل العادل، فأشار بعض الناس على الأفضل أن يخرّب سور بِلبيس ويقيم بالقاهرة، وأشار غيرهم بالتّقدّم إلى أطراف البلاد، ففعل ذلك، فسار عن بِلبيس، ونزل موضعاً يقال له السائح إلى طرف البلاد، ولقاء العادل قبل دخول البلاد سابع ربيع الآخر، فانهزم الأفضل، ودخل القاهرة ليلاً.

وفي تلك الليلة تُوفّي القاضي الفاضل عبد الرحيم بن عليّ البيسانيّ كاتب الإنشاء لصلاح الدّين ووزيره، فحضر الأفضل الصلاة عليه، وسار العادل فنزل على القاهرة وحصرها، فجمع الأفضل مَن عنده من الأمراء واستشارهم، فرأى منهم تخاذلاً،

فأرسل رسولاً إلى عمّه في الصلح وتسليم البلاد إليه، وأخذ العوَض عنها، وطلب دمشق، فلم يُجِبْه العادل، فنزل عنها [إلى] حَرّان والرّها فلم يُجِبْه، فنزل إلى ميّافارقين وحاني[1] وجبل جُور، فأجابه إلى ذلك، وتحالفوا عليه، وخرج الأفضل من مصر ليلة السبت ثامن عشر ربيع الآخر، واجتمع بالعادل، وسار إلى صَرْخَد، ودخل العادل إلى القاهرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر.

ولمّا وصل الأفضل إلى صَرْخَد أرسل مَن تسلّم ميّافارقين وحاني وجبل جُور، فامتنع نجم الدّين أيوب ابن الملك العادل من تسليم ميّافارقين، وسلّم ما عداها، فتردّدت الرسل بين الأفضل والعادل في ذلك، والعادل يزعم أنّ ابنه عصاه، فأمسك عن المراسلة في ذلك لعِلمه أنّ هذا فعل بأمر العادل.

ولمّا ثبتت قدم العادل بمصر قطع خطبة الملك المنصور ابن الملك العزيز في شوّال من السنة، وخطب لنفسه، وحاقق الجُنْد في إقطاعاتهم، واعترضهم في أصحابهم ومَن عليهم من العسكر المقرّر، فتغيّرت لذلك نيّاتهم، فكان ما نذكره سنة سبْعٍ وتسعين [وخمسمائة] إن شاء الله[2].

ذكر وفاة خُوارزم شاه

في هذه السنة، في العشرين من رمضان، تُوفّي خُوارزم شاه تكش بن ألب أرسلان، صاحب خُوارزم وبعض خُراسان والرَّيّ وغيرها من البلاد الجباليّة، بشَهْرَسْتَانَةَ بين نَيسابور وخُوارزم. وكان قد سار من خُوارزم إلى خُراسان، وكان به خوانيق، فأشار عليه الأطبّاء بترك الحركة، فامتنع، وسار، فلمّا قارب شَهْرَسْتَانة اشتدّ مرضه ومات، ولمّا اشتدّ مرضه أرسلوا إلى ابنه قُطْب الدّين محمّد يستدعونه، ويعرّفونه شدّة مرض أبيه، فسار إليهم وقد مات أبوه، فوليَ المُلك بعده، ولُقّب علاء

---

(١) حاني: بالحاء المهملة، مدينة معروفة بديار بكر، فيها معدن الحديد. (معجم البلدان ٢/ ١٨٨)، ووقع في: مفرّج الكروب ٣/ ١٠٩ «جاني» بالجيم، وهو تصحيف.

(٢) مفرّج الكروب ٣/ ١٠٨، ١٠٩، التاريخ المنصوري ١١، تاريخ الزمان ٢٣٢، تاريخ مختصر الدول ٢٢٥، زبدة الحلب ٣/ ١٤٦، ١٤٧، الدر المطلوب ١٤٠، ١٤١، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٩٧، ٩٨، وتاريخ الإسلام (٥٩٦هـ.) ص ٢٣، ٢٤، دول الإسلام ٢/ ١٠٥، تاريخ ابن الوردي ٢/ ١١٥، مرآة الجنان ٣/ ٤٨٤، البداية والنهاية ١٣/ ٢١، ٢٢، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٣٧، السلوك ج ١، ق ١/ ١٥٠، ١٥١، النجوم الزاهرة ٦/ ١٤٩ ـ ١٥١، شفاء القلوب ٢٠٧ ـ ٢١٠، تاريخ ابن الفرات ج ٤، ق ٢/ ١٧٢ ـ ١٧٤، تاريخ ابن سباط ١/ ٢٢٧، ٢٢٨.

الدّين، لقب أبيه، وكان لَقَبه قُطْب الدّين، وأمر فحُمل أبوه ودُفن بخُوارزم (في تربة عملها في مدرسة بناها كبيرة عظيمة)[1]؛ وكان عادلاً حسن السيرة، له معرفة حسنة وعِلم، يعرف الفقه على مذهب أبي حنيفة، ويعرف الأصول.

وكان ولده عليّ شاه بأصفهان، فأرسل إليه أخوه خُوارزم شاه محمّد يستدعيه، فسار إليه، فنهب أهل أصفهان خزانته ورَحْله، فلمّا وصل إلى أخيه ولاّه حرب أهل خُراسان، والتقدّم على جُندها، وسلّم إليه نَيسابور، وكان هندوخان [بن] ملكشاه بن خُوارزم شاه تكش يخاف عمّه محمّداً، فهرب منه، ونهب كثيراً من خزائن جدّه تكش لمّا مات، وكان معه، وسار إلى مرو.

ولمّا سمع غياث الدّين ملك غَزْنة بوفاة خُوارزم شاه أمر أن لا تُضرب نوبته ثلاثة أيّام، وجلس للعزاء على ما بينهما من العداوة والمحاربة؛ فعل ذلك عقلاً منه ومروءة؛ ثمّ إنّ هندوخان جمع جمعاً كثيراً بخُراسان، فسيّر إليه عمّه خُوارزم شاه محمّد جيشاً مقدّمهم جقر التركيّ، فلمّا سمع هندوخان بمسيرهم هرب عن خُراسان وسار إلى غياث الدّين يستنجده على عمّه، فأكرم لقاءه وإنزاله، وأقطعه، ووعده النُّصْرة، فأقام عنده، ودخل جقر مدينة مرو، وبها والدة هندوخان وأولاده، فاستظهر عليهم، وأعلم صاحبه، فأمره بإرسالهم إلى خُوارزم مكرمين؛ فلمّا سمع غياث الدّين ذلك أرسل إلى محمّد بن جربك، صاحب الطالقان، يأمره أن يرسل [إلى] جقر يتهدّده، ففعل [ذلك] وسار من الطالقان، فأخذ مرو الروذ[2]، والخمس قُرى وتسمّى بالفارسيّة بَنْج ده، وأرسل إلى جقر يأمره بإقامة الخطبة بمرو لغياث الدّين، أو يفارق البلد، فأعاد الجواب يتهدّد ابن جربك ويتوعّده، وكتب إليه سرّاً يسأله أن يأخذ له أماناً من غياث الدّين ليحضر خدمته، فكتب إلى غياث الدّين بذلك، فلمّا قرأ كتابه علم أنّ خُوارزم شاه ليس له قوّة، فلهذا طلب جقر الانحياز إليه، فقوي طمعه في البلاد، وكتب إلى أخيه شهاب الدّين يأمره بالخروج إلى خُراسان ليتّفقا على أخذ بلاد خُوارزم شاه محمّد[3].

---

(١) من (أ).

(٢) في النسخة رقم ٧٤٠: «ودره الرود».

(٣) أنظر عن (خوارزم شاه) في: تاريخ الزمان لابن العبري ٢٣٢، وتاريخ مختصر الدول، له ٢٢٥، ومرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٤٧١، وذيل الروضتين ١٧، ونهاية الأرب ٢٧/ ٢٠٥، وإنسان العيون لابن أبي عذيبة (مخطوط) ورقة ١٠٣، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٩٨، ٩٩، والجامع المختصر لابن الساعي ٩/ ٢٤، ٢٥، وتاريخ الإسلام (٥٩٦هـ.) ص ٢٢، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٧٣، =

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في جُمادى الآخرة، وثب الملاحدة الإسماعيليّة على نظام المُلْك مسعود بن عليّ، وزير خُوارزم شاه تكش، فقتلوه، وكان صالحاً كثير الخير، حسن السيرة، شافعيّ المذهب، بنى للشافعيّة بمرو جامعاً مشرفاً على جامع الحنفيّة، فتعصّب شيخ الإسلام [بمَرْو] وهو مقدّم الحنابلة بها، قديم الرياسة[1]، وجمع الأوباش[2]، فأحرقه. فأنفذ خُوارزم شاه فأحضر شيخ الإسلام وجماعة ممّن سعى في ذلك، فأغرمهم مالاً كثيراً.

وبنى الوزير أيضاً مدرسة عظيمة بخُوارزم وجامعاً وجعل فيها خزانة كتب، وله آثار حسنة بخُراسان باقية، ولمّا مات خلّف ولداً صغيراً، فاستوزره خُوارزم شاه رعايةً لحقّ أبيه، فأشير عليه أن يستعفي، فأرسل يقول: إنني صبيّ لا أصلح لهذا المنصب الجليل، فيولّي السلطان فيه من يصلح له إلى أن أكبر، فإن كنتُ أصلح فأنا المملوك؛ فقال خُوارزم شاه: لستُ أعفيك، وأنا وزيرك، فكن مُراجِعي[3] في الأمور، فإنّه لا يقف منها شيء. فاستحسن الناس هذا، ثمّ إنّ الصبيّ لم تطُلْ أيّامه، فتُوفّي قبل خُوارزم شاه بيسير.

[الوفيات]

وفي هذه السنة، في ربيع الأوّل، توفّي شيخنا أبو الفَرَج عبد المنعم بن عبد الوهّاب بن كُلَيب الحرّانيّ المقيم ببغداد وله ستّ وتسعون سنة وشهران، وكان عالي الإسناد في الحديث، وكان ثقة صحيح السماع.

وفي ربيع الآخر منها تُوفّي القاضي الفاضل عبد الرحيم البَيسانيّ الكاتب المشهور، لم يكن في زمانه أحسن كتابة منه، ودُفن بظاهر مصر بالقَرافة، وكان دَيّناً كثير الصّدقة والعبادة، وله وقوف كثيرة على الصدقة وفكّ الأسارى، وكان يُكثر الحجّ والمجاورة مع اشتغاله بخدمة السلطان، وكان السلطان صلاح الدّين يُعظّمه ويحترمه ويُكرمه، ويرجع إلى قوله، رحمهما الله.

= وتاريخ ابن الوردي ١٢/١١٦، ومرآة الجنان ٣/٤٨٤، والبداية والنهاية ١٢/٢٢، ٢٣، والنجوم الزاهرة ٦/١٥٥، وتاريخ ابن سباط ١/٢٣٠، ٢٣١، وأخبار الدول ٢٧٦.

(١) في الأوربية: «فيهم والرياسة».

(٢) في الأوربية: «الأوباس».

(٣) في الأوربية: «راجعني».

٥٩٧

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة

ذكر مُلك الملك الظاهر صاحب حلب منبج وغيرها من الشام وحصره هو وأخوه الأفضل مدينة دمشق وعودهما عنها

قد ذكرنا قبلُ مُلك العادل ديار مصر، وقطْعه خطبة الملك المنصور ولد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدّين يوسف بن أيّوب، وأنّه لمّا فعل ذلك لم يرضه الأمراء المصريّون، وخبثت نيّاتهم في طاعته، فراسلوا أخويه[1]: الظاهر بحلب، والأفضل بصَرخَد، وتكرّرت المكاتبات والمراسلات بينهم، يدعونهما إلى قصد دمشق وحصْرها ليخرج الملك العادل إليهم، فإذا خرج إليهم [من] مصر أسلموه، وصاروا معهما، فيملكان[2] البلاد.

وكثُر ذلك، حتّى فشا الخبر واتّصل بالملك العادل، وانضاف إلى ذلك أنّ النِّيل لم يزد بمصر الزيادة التي تركب الأرض ليزرع الناس، فكثُر الغلاء فضعُفت قوّة الجُنْد، وكان فَخر الدّين جركس قد فارق مصر إلى الشام هو وجماعة من المماليك الناصريّة لحصار بانياس ليأخذها لنفسه بأمر العادل، وكانت لأميرٍ كبير تركيّ اسمه بشارة، قد اتّهمه العادل، فأمر جركس بذلك.

وكان أمير من أمراء العادل يُعرفُ بأُسامة قد حجّ هذه السنة، فلمّا عاد من الحجّ، وقارب صَرخَد، نزل الملك الأفضل، فلقيه وأكرمه، ودعاه إلى نفسه، فأجابه وحلف له، وعرّفه الأفضل جليّة الحال، وكان أسامة من بطانة العادل، وإنّما حلف لينكشف له الأمر، فلمّا فارق الأفضل أرسل إلى العادل، وهو بمصر، يُعرّفه الخبر

---

(١) في الأوربية: «إخوته».

(٢) في الأوربية: «فيملكا».

جميعه، فأرسل إلى ولده الذي بدمشق يأمره بحصر الأفضل بصَرخَد، وكتب إلى إياس[١] جركس وميمون القصْريّ، صاحب بِلبيس، وغيرهما من الناصريّة، يأمرهم بالاجتماع مع ولده على حصر الأفضل.

وسمع الأفضل الخبر، فسار إلى أخيه الظاهر بحلب مُستهلّ جُمادى الأولى من السنة، ووصل إلى حلب عاشر الشهر، وكان الظاهر قد أرسل أميراً كبيراً من أمرائه إلى عمّه العادل، فمنعه العادل من الوصول إليه، وأمره بأن يكتب رسالته، فلم يفعل وعاد لوقته، فتحرّك الظاهر لذلك وجمع عسكره وقصد منبج فملكها للسادس والعشرين من رجب، وسار إلى قلعة نجم وحصرها، فتسلّمها سلْخ رجب.

وأما ابن العادل المقيم بدمشق بإنّه سار إلى بُصرى، وأرسل إلى جركس ومَن معه، وهم على بانياس يحصرونها، يدعوهم إليه، فلم يجيبوه إلى ذلك بل غالطوه، فلمّا طال مُقامه على بُصْرى عاد إلى دمشق، وأرسل الأمير أُسامة إليهم يدعوهم إلى مساعدته، فاتّفق أنّه جرى بينه وبين البكى الفارس، بعض المماليك الكبار الناصريّة، منافرة فأغلظ له البكى القول، وتعدّى إلى الفعل باليد، وثار العسكر جميعه إلى أسامة، فاستذمّ بميمون، فأمّنه وأعاده إلى دمشق، واجتمعوا كلّهم عند الملك الظافر خضر بن صلاح الدّين، وأنزلوه من صرخد، وأرسلوا إلى الملك الظاهر والأفضل يحثّونهما على الوصول إليهم، والملك الظاهر يتربّص ويتعوّق، فوصل من منبج إلى حماة في عشرين يوماً، وأقام على حماة يحصرها وبها صاحبها ناصر الدّين محمّد بن تقيّ الدّين إلى تاسع عشر شهر رمضان، فاصطلحا وحمل له ابن تقيّ الدّين ثلاثين ألف دينار صوريّة، وساروا منها إلى حمص، ثمّ ساروا منها إلى دمشق على طريق بَعْلَبَكّ، فنزلوا عليها عند مسجد القَدَم، فلمّا نزلوا على دمشق أتاهم المماليك الناصريّة مع الملك الظافر خضر بن صلاح الدّين، وكانت القاعدة استقرّت بين الظاهر وأخيه الأفضل أنّهم إذا ملكوا[٢] دمشق تكون بيد الأفضل، ويسيرون إلى مصر، فإذا ملكوها تسلّم الظاهر دمشق، فيبقى الشام جميعه له، وتبقى مصر للأفضل، وسلّم الأفضل صرخد إلى زين الدّين قَراجة مملوك والده ليحضر[٣] في خدمته، وأنزل والدته وأهله

---

(١) في (أ): «أناس»، و (ب): «ابار».

(٢) في (ب): «أنهما إذا ملكا».

(٣) في الأوربية: «لتحضر».

منها وسيّرهم إلى حمص، فأقاموا عند أسد[١] الدّين شيركوه صاحبها[٢].

وكان الملك العادل قد سار من مصر إلى الشام، فنزل [على] مدينة نابلس وسيّر جمعاً من العسكر إلى دمشق ليحفظها، فوصلوا قبل وصول الظاهر والأفضل، وحضر فخر الدّين جركس وغيره من الناصريّة عند الظاهر، وزحفوا إلى دمشق وقاتلوها رابع عشر ذي القعدة، واشتدّ القتال عليها، فالتصق الرجال بالسور، فأدركهم الليل، فعادوا وقد قوي الطمع في أخذها، ثمّ زحفوا إليها مرّة ثانية وثالثة، فلم يبق إلاّ مُلكها، لأنّ العسكر صعِد إلى سطح خان ابن المقدّم، وهو ملاصق للسور، فلو لم يُدركهم الليل لملكوا البلد؛ فلمّا أدركهم الليل، وهم عازمون على الزَّحْف بُكرة، وليس لهم عن البلد مانع، حسد الظاهر أخاه الأفضل، فأرسل إليه يقول له تكون دمشق له وبيده ويُسير العساكر معه إلى مصر. فقال له الأفضل: قد علمتَ أنّ والدتي وأهلي، وهم أهلُكَ أيضاً، على الأرض، ليس لهم موضع يأوون إليه، فاحسب أنّ هذا البلد لك تُعِيرُناهُ ليسكنه أهلي هذه المدّة إلى أن يملك مصر.

فلم يجبه الظاهر إلى[٣] ذلك، ولجّ، فلمّا رأى الأفضل ذلك الحال قال للناصريّة وكلّ من جاء إليهم من الجُند: إن كنتم جئتم إليّ فقد أذِنتُ لكم في العَود إلى العادل، وإن كنتم جئتم إلى أخي الظاهر فأنتم وهو أخبرُ؛ وكان الناس كلّهم يريدون الأفضل، فقالوا: ما نريد سواك، والعادل أحبّ إلينا من أخيك؛ فأذِن لهم في العَود، فهرب فخر الدّين جركس وزين الدّين قراجة الذي أعطاه الأفضل صرخد، فمنهم مَن دخل دمشق، ومنهم مَن عاد إلى إقطاعه، فلمّا انفسخ الأمر عليهم عادوا إلى تجديد الصلح مع العادل، فتردّدت الرسل بينهم واستقرّ الصلح على أن يكون للظاهر منبج، وأفَامِيَة وكَفَرْطاب، وقُرًى معيّنة[٤] من المَعرّة، ويكون للأفضل سُمَيساط، وسَروج، ورأس عين، وحَملين، ورحلوا عن دمشق أوّل المحرّم سنة ثمانٍ وتسعين [وخمسمائة]، فقصد الأفضل حمص فأقام بها، وسار الظاهر إلى حلب، ووصل العادل إلى دمشق تاسع المحرّم، وسار الأفضل إليه من حمص، فاجتمع به بظاهر دمشق، وعاد من عنده

---

(١) في (أ): «عند ناصر».

(٢) في (أ): «عند أسد الدين محمد صاحبها».

(٣) في الأوربية: «في».

(٤) في (ب): «وقرى معروفة».

إلى حمص، وسار منها ليتسلّم سُمَيساط، فتسلّمها، وتسلّم باقي ما استقرّ له: رأس عين وسَروج وغيرهما[1].

ذكر مُلك غياث الدين وأخيه ما كان لخوارزم شاه بخراسان

قد ذكرنا مسير محمّد بن خرميل[2] من الطالقان. واستيلاءه على مَرْو الرُّوذ وسُؤال جَقر التركيّ نائب علاء الدّين محمّد خُوارزم شاه بمَرْوَ أن يكون في جملة عسكر غياث الدّين، ولمّا وصل كتاب ابن خرميل[2] إلى غياث الدّين في معنى جقر، علم أنّ هذا إنّما دعاه إلى الانتماء إليهم ضعف صاحبه، فأرسل إلى أخيه شهاب الدّين يستدعيه إلى خُراسان، فسار من غَزْنة في عساكره وجنوده وعدّته وما يحتاج إليه.

وكان بهَرَاة الأمير عمر بن محمّد المرغنيّ[3] نائباً عن غياث الدّين، وكان يكره خروج غياث الدّين إلى خُراسان، فأحضره غياث الدّين واستشاره، فأشار بالكفّ عن قصدها، وترك المسير[4] إليها، فأنكر عليه ذلك، وأراد إبعاده[5] عنه، ثمّ تركه، ووصل شهاب الدّين في عساكره وعساكر سِجِستان وغيرها في جُمادى الأولى من هذه السنة، فلمّا وصلوا إلى مِيْمَنَة[6]، وهي قرية بين الطالقان وكُرزُبان، وصل إلى شهاب الدّين كتاب جقر مستحفظ مَرْوَ، يطلبه ليسلّمها إليه، فاستأذن أخاه غياث الدّين، فأذِن له، فسار إليها، فخرج أهلها مع العسكر الخُوارزميّ وقاتلوه، فأمر أصحابه بالحملة عليهم والجدّ في قتالهم، فحملوا عليهم، فأدخلوهم البلد، وزحفوا بالفِيَلة إلى أن قاربوا السور، فطلب أهل البلد الأمان، فأمّنهم وكفّ الناس عن التّعرّض إليهم، وخرج

---

(1) في الأوربية: «وغيرها».
والخبر في: مرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٤٧٩، ٤٨٠، ومفرّج الكروب ٣/ ١٢٠ ـ ١٢٩، وتاريخ الزمان ٢٣٢، ٢٣٣، وتاريخ مختصر الدول ٢٢٦، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٩٩، ١٠٠، ونهاية الأرب ٢٩/ ١٩ ـ ٢٦، وتاريخ الإسلام (٥٩٧هـ.) ص ٣٥، ٣٦، ودول الإسلام ٢/ ١٠٦، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٧، والسلوك ج ١، ق ١/ ١٥٥، ١٥٦، والعسجد المسبوك ٢/ ٢٦٠، وشفاء القلوب ٢١٠ ـ ٢١٢، وتاريخ ابن الفرات ج ٤، ق ٢/ ٢٠٣ ـ ٢٠٧، وتاريخ ابن سباط ١/ ٢٣٢.

(2) في (أ): «حرميل».

(3) في (ب): «المرعني».

(4) في (أ): «عن قصدها والمسير».

(5) في الأوربية: «إبعاده».

(6) في طبعة صادر ١٢/ ١٦٤ «مَيْمَنَة» بفتح أوله، والصحيح ما أثبتناه، بكسر أوله. كما قال ياقوت في (معجم البلدان ٥/ ٢٤٥). وفي (أ): «ميهنة».

جقر إلى شهاب الدّين فوعده الجميل.

ثمّ حضر غياث الدّين إلى مرو بعد فتحها، فأخذ جقر وسيّره إلى هَرَاة مكرماً، وسلّم مرو إلى هندوخان بن ملكشاه بن خُوارزم شاه تكش، وقد ذكرنا هربه من عمّه خُوارزم شاه محمّد بن تكش إلى غياث الدّين، ووصّاه بالإحسان إلى أهلها.

ثمّ سار غياث الدّين إلى مدينة سَرْخَس، فأخذها صلحاً، وسلّمها إلى الأمير زنكي بن مسعود، وهو من أولاد عمّه، وأقطعه معها نَسَا وأبِيوَرد؛ ثمّ سار بالعساكر إلى طوس، فأراد الأمير الذي بها أن يمتنع فيها ولا يسلّمها، فأغلق باب البلاد ثلاثة أيّام، فبلغ الخبز ثلاثةَ أَمْناء[1] بدِينار ركنيّ، فضجّ أهل البلد عليه، فأرسل إلى غياث الدّين يطلب الأمان، فأمّنه، فخرج إليه، فخلع عليه وسيّره إلى هَرَاة؛ ولمّا ملكها أرسل إلى عليّ شاه بن خُوارزم شاه تكش، وهو نائب أخيه علاء الدّين محمّد بنَيسابور، يأمره بمفارقة البلد، ويحذره إن أقام سطوة أخيه شهاب الدّين. وكان مع عليّ شاه عسكر من خُوارزم شاه، فاتّفقوا على الامتناع من تسليم البلد، وحصّنوه، وخرّبوا ما بظاهره من العمارة، وقطعوا الأشجار. وسار غياث الدّين إلى نيسابور، فوصل إليها أوائل رجب، وتقدّم عسكر أخيه شهاب الدّين إلى القتال، فلمّا رأى غياث الدّين ذلك قال لولده محمود: قد سَبَقَنا عسكر غَزْنة بفتح مرو، وهم يريدون أن يفتحوا نَيسابور، فيحصلون بالاسم، فاحمل إلى البلد، ولا ترجع حتّى تصل إلى السور. فحمل، وحمل معه وجوه الغوريّة، فلم يردّهم أحد من السور، حتّى أصعدوا عَلَم غياث الدّين إليه، فلمّا رأى شهاب الدّين عَلَم أخيه على السور قال لأصحابه: اقصدوا بنا هذه الناحية، واصعدوا السور من هاهنا؛ وأشار إلى مكانٍ فيه، فسقط السور منهدماً، فضجّ الناس بالتّكبير، وذهل الخُوارزميّون وأهل البلد، ودخل الغوريّة البلد، وملكوه عَنوةً، ونهبوه ساعةً من نهار، فبلغ الخبر إلى غياث الدّين فأمر بالنداء: مَن نهب مالاً أو آذى أحداً فدمه حلال؛ فأعاد الناس ما نهبوه عن آخره.

ولقد حدّثني بعض أصدقائنا من التّجّار، وكان بنَيسابور في هذه الحادثة: نُهب من متاعي شيء من جملته سُكّر، فلمّا سمع العسكر النداء ردّوا جميع ما أخذوا منّي، وبقي لي بساط وشيء من السّكّر، فرأيتُ السُّكّر مع جماعة، فطلبتُه منهم، فقالوا: أما

---

(١) في الأوربية: «أمنا».

السُّكّر فأكلناه، فنسألك ألاّ يسمع أحد، وإن أردت ثَمنه أعطيناك؛ فقلتُ: أنتم في حلٍّ منه؛ ولم يكن البساط مع أولئك، (قال: فمشيتُ إلى باب البلد مع النظارة، فرأيتُ البساط)[1] الذي لي قد أُلقي عند باب البلد لم يجسر أحد على أن يأخذه، فأخذته وقلتُ: هذا لي؛ فطلبوا منّي مَن يشهد به، فأحضرتُ مَن شهد لي وأخذته.

ثمّ إنّ الخُوارزميّين تحصّنوا بالجامع، فأخرجهم أهل البلد، فأخذهم الغوريّة ونهبوا مالهم، وأُخذ عليّ شاه بن خُوارزم شاه وأُحضر عند غياث الدّين راجلاً، فأنكر ذلك على من أحضره، وعظُم الأمر فيه، وحضرت دايّة كانت لعليّ شاه، وقالت لغياث الدّين: أهكذا يُفعل بأولاد الملوك؟ فقال: لا! بل هكذا، وأخذ بيده، وأقعده معه على السرير، وطيّب نفسه، وسيّر جماعة الأمراء الخُوارزميّة إلى هَرَاة تحت الاستظهار، وأحضر غياث الدّين ابن عمّه، وصهره على ابنته، ضياء الدّين محمّد بن أبي عليّ الغوريّ وولاّه حرب خُراسان وخراجها، ولقّبه علاء الدّين، وجعل معه وجوه الغوريّة، ورحل إلى هَرَاة، وسلّم عليّ شاه إلى أخيه شهاب الدّين، وأحسن[2] إلى أهل نَيسابور وفرّق فيهم مالاً كثيراً.

ثمّ رحل بعده شهاب الدّين إلى ناحية قُهِسْتَان، فوصل إلى قرية، فذُكر له أنّ أهلها إسماعيليّة، فأمر بقتل المقاتلة، ونهب الأموال، وسبْي الذّراري، وخرّب القرية فجعلها خاويةً على عروشها، ثمّ سار إلى كناباد[3] وهي من المدن التي جميع أهلها إسماعيليّة، فنزل عليها وحصرها، فأرسل صاحب قهستان إلى غياث الدّين يشكو أخاه شهاب الدّين، ويقول: بيننا عهدٌ، فما الذي بدا منّا حتّى تحاصر بلدي؟

واشتدّ خوف الإسماعيليّة الذين بالمدينة من شهاب الدّين، فطلبوا الأمان ليخرجوا منها، فأمّنهم، وأخرجهم وملك المدينة وسلّمها إلى بعض الغوريّة، فأقام بها الصلاة، وشعار الإسلام، ورحل شهاب الدّين فنزل على حصن آخر للإسماعيليّة، فوصل إليه رسول أخيه غياث الدّين، فقال الرسول: معي تقدّمٌ من السلطان، فلا يجري حردٌ إنْ فعلتُه؟ فقال: لا. فقال: إنّه يقول لك ما لك ولرعيّتي، ارحل؛ قال: لا أرحل! قال: إذن أفعل ما أمرني. قال: افعل؛ فسلّ سيفه وقطع أطناب سُرادق

---

(١) من (أ).

(٢) من (أ).

(٣) في الباريسية: «كاباد»، وفي النسخة رقم ٧٤٠ «كاباذ».

شهاب الدّين، وقال: ارحل بتقدّم السلطان؛ فرحل شهاب الدّين والعسكر وهو كاره، وسار إلى بلد الهند، ولم يُقم بغَزْنة غضباً لما فعله أخوه معه[1].

ذكر قصد نور الدين بلاد العادل والصلح بينهما

في هذه السنة أيضاً تجهّز نور الدّين أرسلان شاه، صاحب الموصل، وجمع عساكره وسار إلى بلاد الملك العادل بالجزيرة: حرّان والرُّها؛ وكان سبب حركته أنّ الملك العادل لمّا ملك مصر، على ما ذكرناه قبلُ، اتّفق نور الدّين والملك الظاهر، صاحب حلب وصاحب ماردين وغيرهما[2]، على أن يكونوا يداً واحدة، متّفقين على منع العادل عن قصد أحدهم، فلمّا تجدّدت[3] حركة الأفضل والظاهر أرسلا[4] إلى نور الدّين ليقصد البلاد الجزريّة، فسار عن الموصل في شعبان من هذه السنة، وسار معه ابن عمّه قُطب الدّين محمّد بن عماد الدّين زنكي، صاحب سنجار ونصيبين، وصاحب ماردين، ووصل إلى رأس عين، وكان الزمان قَيظاً، فكثُرت الأمراض في عسكره.

وكان بحرّان ولدُ العادل يُلقّب بالملك الفائز ومعه عسكر يحفظ البلاد، فلمّا وصل نور الدّين إلى رأس عين جاءته رسل الفائز ومَن معه من أكابر الأمراء يطلبون الصلح ويرغبون فيه، وكان نور الدّين قد سمع بأنّ الصلح بدأ يتمّ[5] بين الملك العادل والملك الظاهر والأفضل، وانضاف إلى ذلك كثرة الأمراض في عسكره، فأجاب إليه، وحلّف الملك الفائز ومَن عنده من أكابر الأمراء على القاعدة التي استقرّت، وحلفوا له أنّهم يحلّفون الملك العادل له، فإن امتنع كانوا معه عليه، وحلف هو للملك العادل.

وسارت الرسل من عنده ومن عند ولده في طلب اليمين من العادل، فأجاب إلى ذلك، وحلف له، واستقرّت القاعدة، وأمنت البلاد وعاد نور الدّين إلى الموصل في

---

(١) الجامع المختصر لابن الساعي ٩/٥١، ٥٢، المختصر في أخبار البشر ٣/١٠٠، نهاية الأرب ٢٧/٢٠٩ ـ ٢١٤، المختار من تاريخ ابن الجزري ٧٥، ٧٦، تاريخ الإسلام (٥٩٧هـ.) ص ٣٦ ـ ٣٨، تاريخ ابن الوردي ٢/١٦٨، البداية والنهاية ١٣/٢٧، العسجد المسبوك ٢/٢٦١ ـ ٢٦٤، تاريخ ابن سباط ١/٢٣٣.

(٢) في الأوربية: «وغيرها».

(٣) في الأوربية: «تجدّد».

(٤) في الأوربية: «أرسلان».

(٥) في (أ) و (ب): «الصلح أو ذانتم».

ذي القعدة من السنة[1].

ذكر مُلك شهاب الدين نَهرَواله[2]

لمّا سار شهاب الدّين من خُراسان، على ما ذكرناه، لم يُقم بغزنة، وقصد بلاد الهند، وأرسل مملوكه قُطب الدّين أيبَك إلى نَهرواله[2]، فوصلها سنة ثمانٍ وتسعين [وخمسمائة]، فلقيه عسكر الهنود، فقاتلوه قتالاً شديداً، فهزمهم أيبَك، واستباح معسكرهم، وما لهم فيه من الدّوابّ وغيرها، وتقدّم إلى نَهرواله فملكها عَنوة، وهرب ملكها، فجمع وحشد، فكثُر جَمْعه.

وعلم شهاب الدّين أنّه لا يقدر على حفظها إلاّ بأن يقيم هو فيها ويُخليها من أهلها، ويتعذّر عليه ذلك، فإنّ البلد عظيم، هو أعظم بلاد الهند، وأكثرهم أهلاً، فصالح صاحبها على مالٍ يؤدّيه إليه عاجلاً وآجلاً، وأعاد عساكره عنها وسلّمها إلى صاحبها.

ذكر مُلك ركن الدين مَلَطْيَة من أخيه وأرْزَن الروم

في هذه السنة، في شهر رمضان، ملك رُكن الدّين سليمان بن قِلج أرسلان مدينة مَلَطْيَة، وكانت لأخيه مُعِزّ الدّين قيصر شاه، فسار إليه وحصره أيّاماً وملكها، وسار منها إلى أرْزَنِ الروم، وكانت لولد الملك ابن محمّد بن صلتق، وهم بيتٌ قديم قد ملكوا أرزَن الروم هذه مدّة طويلة، فلمّا سار إليها وقاربها خرج صاحبها إليه ثقة به ليقرّر معه الصلح على قاعدة يؤثرها رُكن الدّين، فقبض عليه واعتقله عنده وأخذ البلد، وكان هذا آخر أهل بيته الذين [ملكوا]، فتبارك الله الحيّ القيّوم الذي لا يزول ملكه أبداً سرمداً.

ذكر وفاة سَقمان صاحب آمِد ومُلك أخيه محمود

في هذه السنة تُوفّي قُطب الدّين سَقمان بن محمّد بن قُرا أرسلان بن داود بن سقمان، صاحب آمِد وحِصن كيفا، سقط من سطح جَوْسَق كان له بظاهر حصن كيفا فمات، وكان شديد الكراهة لأخيه هذا[3]، والنفور عنه، قد أبعده وأنزله حصن منصور في آخر بلادهم، واتّخذ مملوكاً اسمه إياس، فزوّجه أخته، وأحبّه حُبّاً شديداً، وجعله وليّ عهده، فلمّا تُوفّي ملك بعده عدّة أيّام، وتهدّد وزيراً كان لقُطب الدّين، وغيره من أمراء الدّولة، فأرسلوا إلى أخيه محمود سرّاً يستدعونه، فسار مُجِدّاً، فوصل إلى آمد

---

(١) مفرّج الكروب ٣/١٢٦، ١٢٧.

(٢) في النسخة رقم ٧٤٠ والباريسية: «نهرواره».

(٣) في الأوربية: «لهذا أخيه».

وقد سبقه إليها إياس مملوك أخيه، فلم يقدم على الامتناع، فتسلّم محمود البلاد جميعها وملكها، وحبس المملوك فبقي مدّة محبوساً، ثم شفع له صاحب بلاد الروم، فأُطلق من الحبس، وسار إلى الروم، فصار أميراً من أمراء الدّولة.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة اشتدّ الغلاء بالبلاد المصريّة لعدم زيادة النيل، وتعذّرت الأقوات حتّى أكل الناس المَيتَة، وأكل بعضهم بعضاً، ثم لحِقهم عليه وباء وموت كثير أفنى الناس[1].

وفي شعبان منها تزلزلت الأرض بالموصل، وديار الجزيرة كلّها، والشام، ومصر، وغيرها، فأثّرت في الشام آثاراً قبيحة، وخرّبت كثيراً من الدور بدمشق، وحمص، وحماة، وانخسفت قرية من قرى بُصرى، وأثّرت في الساحل الشاميّ أثراً كثيراً، فاستولى الخراب على طرابلس، وصور، وعكّا، ونابلس، وغيرها من القلاع، ووصلت الزلزلة إلى بلد الروم، وكانت بالعراق يسيرة لم تهدم دوراً[2].

وفيها وُلد ببغداد طفل له رأسان، وذلك أنّ جبهته مفروقة بمقدار ما يدخل فيها ميل[3].

[الوَفَيات]

وفي هذه السنة، في شهر رمضان، تُوفّي أبو الفَرَج عبد الرحمن بن عليّ ابن

---

(١) أنظر عن الغلاء في: الإفادة والاعتبار للموفّق البغدادي ٢٢٣ وما بعدها، ومرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٤٧٧، ٤٧٨، والتاريخ المنصوري ١٤، وذيل الروضتين ١٩، وتاريخ الزمان ٢٣٤، ومفرّج الكروب ٣/ ١٢٧، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٠١، والدرّ المطلوب ١٤٩، والجامع المختصر لابن الساعي ٩/ ٤٧، ودول الإسلام ٢/ ١٠٦، وتاريخ الإسلام (٥٩٧هـ.) ص ٢٧ ـ ٣٢، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١١٨، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٢ و٢٦، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٧٤، ٧٥، والسلوك ج ١، ق ١/ ١٥٧، ١٥٨، والنجوم الزاهرة ٦/ ١٧٣، وتاريخ ابن الفرات ج ٤، ق ٢/ ٢٠٧ ـ ٢٠٩، وتاريخ ابن سباط ١/ ٢٣٤، وبدائع الزهور ج ١، ق ١/ ٢٥٤.

(٢) أنظر عن الزلزلة في: الإفادة والاعتبار ٢٧٠، ومرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٤٧٧، والتاريخ المنصوري (طبعة موسكو) ٢٣٤ و (طبعة دمشق) ٢٥، وذيل الروضتين ٢٠، والجامع المختصر ٩/ ٥٣، والدرّ المطلوب ١٤٩، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٠١، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٧٥، ودول الإسلام ٢/ ١٠٦، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٩٧هـ.) ص ٣٢ ـ ٣٤، ومرآة الجنان ٣/ ٤٨٨، ٤٨٩، والبداية والنهاية ١٣/ ٢٧، ٢٨، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ١١٨، والعسجد المسبوك ٢/ ٢٦٧، والسلوك ج ١، ق ١/ ١٣٥، وكشف الصلصلة ١٩٤، وتاريخ ابن سباط ١/ ٢٣٤.

(٣) المختار من تاريخ ابن الجزري ٧٧.

الجوزيّ الحَنبليّ الواعظ ببغداد، وتصانيفه مشهورة، وكان كثير الوقيعة في الناس لا سيّما في العلماء المخالفين لمذهبه والموافقين له، وكان مولده سنة عشرٍ وخمسمائة.

وفيه أيضاً تُوفّي عيسى بن نُصير النّميريّ الشاعر، وكان حَسَن الشِعر، وله أدب وفضل، وكان موته ببغداد.

وفيها تُوفّي العماد أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن حامد بن ألّه، أوّله باللام المشدّدة، وهو العماد الكاتب الأصفهانيّ، كتب لنور الدّين محمود بن زنكي ولصلاح الدّين يوسف بن أيّوب، رضي الله عنهما، وكان كاتباً مفلقاً، قادراً على القول.

وفيها جمع عبد الله بن حمزة العلويّ المتغلّب على جبال اليمن جموعاً كثيرة فيها اثنا عشر ألف فارس، ومن الرجّالة ما لا يحصى كثرةً، وكان قد انضاف إليه من جُند المعزّ بن إسمعيل بن سيف الإسلام طُغْدِكين بن أيّوب، صاحب اليمن، خوفاً منه، وأيقنوا بمُلك البلاد، واقتسموها، وخافهم ابن سيف الإسلام خوفاً عظيماً، فاجتمع قوّاد عسكر ابن حمزة ليلاً ليتّفقوا على رأي يكون العمل بمقتضاه، وكانوا اثني عشر قائداً فنزلت عليهم صاعقة أهلكتهم جميعهم، فأتى الخبر ابنَ سيفِ الإسلام في باقي الليلة بذلك، فصار إليهم مُجِدّاً فأوقع بالعسكر المجتمع، فلم يثبتوا له، وانهزموا بين يديه، ووضع السيف فيهم، فقُتل منهم[1] ستّة آلاف قتيل أو أكثر من ذلك، وثبت مُلكه واستقرّ بتلك الأرض[2].

وفيها وقع في بني عَنَزَة بأرض الشَّراة، بين الحجاز واليمن، وباء عظيم، وكانوا يسكنون في عشرين قرية، فوقع الوباء في ثماني عشرة قرية، فلم يبق منهم أحد. وكان الإنسان إذا قرُب من تلك القرى يموت ساعة ما يقاربها، فتحاماها الناس، وبقيت إبِلُهم وأغنامهم لا مانع لها، وأمّا القريتان الأخريان[3] فلم يمت فيهما[4] أحد، ولا أحسّوا بشيء ممّا كان فيه أولئك[5].

---

(١) في (ب): «منهم أكثر من».

(٢) أنظر: مفرّج الكروب ٣/ ١٣٥ ـ ١٣٩.

(٣) في الأوربية: «الأخريتان».

(٤) في الأوربية: «فيها».

(٥) الخبر في: الجامع المختصر لابن الساعي ٩/ ٥٣، ٥٤، وتاريخ الإسلام (٥٩٧هـ.) ص ٣٩ باختصار، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٧٧، والعسجد المسبوك ٢/ ٣٦٧.

٥٩٨
ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة

ذكر مُلك خُوارزم شاه ما كان أخذه الغوريّة من بلاده

قد ذكرنا في سنة سبْعٍ وتسعين [وخمسمائة] مُلك غياث الدّين وأخيه شهاب الدّين ما كان لخُوارزم شاه محمّد بن تكش بخُراسان، ومَرْو، ونَيسابور، وغيرها[١]، وعَودهما عنها بعد أن أقطعا البلاد، ومسير شهاب الدّين إلى الهند؛ فلمّا اتصل بخُوارزم شاه علاء الدّين محمّد بن تكش عَود العساكر الغوريّة عن خُراسان، ودخول شهاب الدّين الهند، أرسل إلى غياث الدّين يُعاتبه، ويقول: كنتُ أعتقد أن تخلف عليّ بعد أبي، وأن تنصرني على الخطا، وتردّهم عن بلادي، فحيث لم تفعل فلا أقلّ من أن لا تؤذيني وتأخذ بلادي، والذي أريده أن تعيد ما أخذتَه منّي إليّ، وإلاّ استنصرتُ عليك بالخطا وغيرهم من الأتراك، إنْ عجزت عن أخذ بلادي، فإنّني إنّما شغلني عن منعكم عنها الاشتغال بعزاء والدي وتقرير أمر بلادي، وإلاّ فما أنا عاجز عنكم وعن أخذ بلادكم بخُراسان وغيرها؛ فغالطه غياث الدّين في الجواب لتمتدّ الأيّام بالمراسلات، ويخرج أخوه شهاب الدّين من الهند بالعساكر، فإنّ غياث الدّين كان عاجزاً باستيلاء النّقرس[٢] عليه.

فلمّا وقف خُوارزم شاه على رسالة غياث الدّين أرسل إلى علاء الدّين الغُوريّ، نائب غياث الدّين بخُراسان، يأمره بالرحيل عن نَيسابور، ويتهّدده إن لم يفعل، فكتب علاء الدّين إلى غياث الدّين بذلك، ويعرّفه ميل أهل البلد إلى الخُورازميّين، فأعاد غياث الدّين جوابه يقوّي قلبه، ويَعِده النُّصْرة والمنع عنه[٣].

---

(١) في الأوربية: «وغيرهما».

(٢) في الأوربية: «النفرس».

(٣) في (ب): «والمنع عنه وأمره بملازمة مكانه».

وجمع خُوارزم شاه عساكره وسار عن خُوارزم نصف ذي الحجّة سنة سبْعٍ وتسعين وخمسمائة، فلمّا قارب نسا وأبيوَرد هرب هندوخان ابن أخي ملكشاه من مرو إلى غياث الدّين بفيروزكوه، وملك خُوارزم شاه مدينة مرو، وسار إلى نيسابور وبها علاء الدّين، فحصره، وقاتله قتالاً شديداً، وطال مُقامه عليها، وراسله غير مرّة في تسليم البلد إليه، وهو لا يجيب إلى ذلك انتظاراً للمدد من غياث الدّين، فبقي نحو شهرَيْن، فلمّا أبطأ عنه النّجدة أرسل إلى خُوارزم شاه يطلب الأمان لنفسه ولمن معه من الغُوريّة، وأنّه لا يتعرّض إليهم بحبْسٍ ولا غيره من الأذى؛ فأجابه إلى ذلك، وحلف لهم، وخرجوا من البلد وأحسن خُوارزم شاه إليهم، ووصلهم بمالٍ جليل وهدايا كثيرة، وطلب من علاء الدّين أن يسعى في الصلح بينه وبين غياث الدّين وأخيه، فأجابه إلى ذلك.

وسار إلى هَرَاة، ومنها إلى إقطاعه، ولم يمضِ إلى غياث الدّين تجنّياً عليه لتأخّر أمداده، ولمّا خرج الغُوريّة من نيسابور أحسن خُوارزم شاه إلى الحسين بن خرميل، وهو من أعيان أمرائهم، زيادةً على غيره، وبالغ في إكرامه، فقيل إنّه من ذلك اليوم استحلفه لنفسه، وأن يكون معه بعد غياث الدّين وأخيه شهاب الدّين.

ثم سار خُوارزم شاه إلى سرخس، وبها الأمير زنكي، فحصره أربعين يوماً، وجرى بين الفريقَيْن حروبٌ كثيرة، فضاقت الميرة على أهل البلد، لا سيّما الحطب، فأرسل زنكي إلى خُوارزم شاه يطلب منه أن يتأخّر عن باب البلد حتّى يخرج هو وأصحابه ويترك البلد له، فراسله خُوارزم شاه في الاجتماع ليُحسن إليه وإلى مَن معه، فلم يُجِبه إلى ذلك واحتجّ بقرب نسبه من غياث الدّين، فأبعد خُوارزم شاه عن باب البلد بعساكره، فخرج زنكي فأخذ من الغلّات وغيرها التي في المعسكر ما أراد لا سيّما من الحطب، وعاد إلى البلد وأخرج منه مَن كان قد ضاق به الأمر، وكتب إلى خُوارزم شاه: العَود أحمد؛ فندم حيث لم ينفعه الندم؛ ورحل عن البلد، وترك عليه جماعة من الأمراء يحصرونه.

فلمّا أبعد خُوارزم شاه سار محمّد بن جربك من الطالقان، وهو من أمراء الغوريّة، وأرسل إلى زنكي أمير سرخس يُعرّفه أنّه يريد أن يكبس الخُوارزميين لئلاّ ينزعج إذا سمع الغَلَبة؛ وسمع الخُوارزميّون الخبر، ففارقوا سرخس، وخرج زنكي ولقي محمّد بن جربك وعسكراً في مرو الروذ، وأخذ خراجها وما يجاورها، فسيّر

إليهم خُوارزم شاه عسكراً مع خاله، فلقِيهم محمّد بن جربك وقاتلهم، وحمل بلُتّ في يده على صاحب عَلَم الخُوارزميّة فضربه فقتله، وألقى علمهم، وكسر كوساتهم، فانقطع صوتها عن العسكر، ولم يروا أعلامهم، فانهزموا، وركبهم الغوريّة قتلاً وأسراً نحو فرسخين، فكانوا ثلاثة آلاف فارس وابن جربك في تسع مائة فارس، وغنم جميع معسكرهم؛ فلمّا سمع خُوارزم شاه ذلك عاد إلى خُوارزم، وأرسل إلى غياث الدّين في الصلح، فأجابه عن رسالته مع أمير كبير من الغوريّة يقال له الحسين بن محمّد المَرْغَنيّ، ومَرْغَن من قُرى الغُور، فقبض عليه خُوارزم شاه[1].

ذكر حصر خُوارزم شاه هَراة وعَوده عنها

لمّا أرسل خُوارزم شاه إلى غياث الدّين في الصلح، وأجابه عن رسالته مع الحسين المرغنيّ مغالطاً، قبض خُوارزم شاه على الحسين، وسار إلى هَرَاة ليحاصرها، فكتب الحسين إلى أخيه عمر بن محمّد المرغنيّ، أمير هَرَاة، يخبره بذلك، فاستعدّ للحصار.

وكان سبب قصْد خُوارزم شاه حصار هَرَاة أنّ رجلَيْن أخوَيْن، ممّن كان يخدم محمّداً[2] سلطان شاه، اتّصلا بغياث الدّين، بعد وفاة سلطان شاه، فأكرمهما غياث الدّين، وأحسن إليهما، يقال لأحدهما الأمير الحاجّي، فكاتبا خُوارزم شاه، وأطمعاه[3] في البلد، وضمنا له تسليمه إليه، فسار لذلك، ونازل المدينة وحصرها، فسلّم الأمير عمر المرغنيّ، أمير البلد، مفاتيح[4] الأبواب إليهما، وجعلهما على القتال ثقةً منه بهما، وظنّاً منه أنّهما عدوّا خُوارزم شاه تكش وابنه محمّد بعده، فاتّفق أن بعض الخُوارزميّة أخبر الحسين المرغنيّ[5] المأسور عند خُوارزم شاه بحال الرجلَيْن، وأنّهما هما اللذان يدبّران خُوارزم شاه ويأمرانه بما يفعل، فلم يصدّقه، وأتاه بخط الأمير الحاجّي، فأخذه وأرسله إلى أخيه عمر أمير هراة، فأخذهما واعتقلهما وأخذ أصحابهما.

---

(١) نهاية الأرب ٢٧/٢٠٩ ـ ٢١١.

(٢) في (أ): «يخدم عمه سلطان شاه».

(٣) في الأوربية: «وأطعماه».

(٤) في الأوربية: «مفاتج».

(٥) في (أ): «المرعني».

ثمّ إنّ ألب غازي، وهو ابن أخت غياث الدّين، جاء في عسكر من الغوريّة، فنزل على خمسة فراسخ من هَرَاة، فكان يمنع الميرة عن عسكر خُوارزم شاه؛ ثمّ إنّ خُوارزم شاه سيّر عسكراً إلى أعمال الطالقان للغارة عليها، فلقيهم الحسين بن خرميل[1] فقاتلهم، فظفر بهم فلم يُفلت منهم أحد.

وسار غياث الدّين عن فِيروزكوه إلى هَرَاة في عسكره، فنزل برباط رزين[2] بالقرب من هراة، ولم يقدم على خُوارزم شاه لقلّة عسكره لأنّ أكثر عساكره كانت مع أخيه بالهند وغزنة، فأقام خُوارزم شاه على هَرَاة أربعين يوماً، وعزم على الرحيل لأنّه بلغه انهزام أصحابه بالطالقان وقرْب غياث الدّين، وكذلك أيضاً قرْب ألب غازي؛ وسمع أيضاً أنّ شهاب الدّين قد خرج من الهند إلى غزنة، وكان وصوله إليها في رجب من هذه السنة، فخاف أن يصل بعساكره فلا يمكنه المقام على البلد، فأرسل إلى أمير هراة عمر المرغنيّ في الصلح فصالحه على مالٍ حمله إليه وارتحل عن البلد.

وأمّا شهاب الدّين، فإنّه لمّا وصل إلى غَزْنة بلغه الخبر بما فعله خُوارزم شاه بخُراسان ومُلكه لها، فسار إلى خُراسان، فوصل إلى بلْخ ومنها إلى باميان ثمّ إلى مَرْو، عازماً على حرب خُوارزم شاه، وكان نازلاً هناك، فالتقت أوائل عسكريهما، واقتتلوا، فقُتل من الفريقيْن خلق كثير، ثمّ إنّ خُوارزم شاه ارتحل عن مكانه شِبْه المنهزم، وقطع القناطر، وقتل الأميرَ سنجر، صاحب نيسابور، لأنّه اتّهمه بالمخامرة عليه، وتوجّه شهاب الدّين إلى طوس فأقام بها تلك الشتوة على عزم المسير إلى خُوارزم ليحصرها، فأتاه الخبر بوفاة أخيه غياث الدّين، فقصد هَراة وترك ذلك العزم[3].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة درّس مجد الدّين أبو عليّ يحيى بن الربيع، الفقيه الشافعيّ، بالنظاميّة ببغداد في ربيع الأول[4].

---

(١) في (أ): «حرميل».

(٢) في الباريسية: «زرّين».

(٣) نهاية الأرب ٢٧/ ٢١١ ـ ٢١٣.

(٤) أنظر: تاريخ الإسلام (حوادث ٥٩٨هـ.) ص ٤١.

[الوَفَيَات]

وفيها تُوُفّيت[1] بنفشة جارية الخليفة المستضيء بأمر الله، وكان كثير الميل إليها، والمحبّة لها، وكانت كثيرة المعروف والإحسان والصدقة.

وفيها أيضاً تُوفّي الخطيب عبد الملك بن زيد الدَّوْلَعيّ، خطيب دمشق، وكان فقيهاً شافعيّاً، هو من الدَّوْلَعيّة قرية من أعمال الموصل.

(١) في (ب): «في ربيع الأول منها توفيت ببغداد».

٥٩٩

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة

ذكر حصر عسكر العادل ماردين وصلحه مع صاحبها

في هذه السنة، في المحرّم، سيّر الملك العادل أبو بكر بن أيّوب، صاحب دمشق ومصر، عسكراً مع ولده الملك الأشرف موسى إلى ماردين، فحصروها، وشحّنوا على أعمالها، وانضاف إليه عسكر الموصل وسنجار وغيرهما، ونزلوا بخَرْزَم[١] تحت ماردين، ونزل عسكر من قلعة البارعيّة[٢]، وهي لصاحب ماردين، يقطعون الميرة عن العسكر العادليّ، فسار إليهم طائفة من العسكر العادليّ، فاقتتلوا، فانهزم عسكر البارعيّة[٢].

وثار التُّركمان وقطعوا الطريق في تلك الناحية، وأكثروا الفساد، فتعذّر سلوك الطريق إلاّ لجماعة[٣] من أرباب السلاح، فسار طائفة من العسكر العادليّ إلى رأس عين لإصلاح الطرق، وكفّ عادية الفساد، وأقام ولد العادل، ولم يحصل له غرض، فدخل الملك الظاهر غازي بن صلاح الدّين يوسف، صاحب حلب، في الصلح بينهم، وأرسل إلى عمّه العادل في ذلك، فأجاب إليه على قاعدة أن يحمل له صاحب ماردين مائة وخمسين ألف دينار[٤]، فجاء صرف الدّينار أحد عشر قيراطاً من أميري، ويخطب له ببلاده، ويضرب اسمه على السكّة، ويكون عسكره في خدمته أيّ وقت طلبه، وأخذ الظاهر عشرين ألف دينار من النقد المذكور، وقرية القراديّ من أعمال شَبَخْتان[٥]،

---

(١) في البار..ية: «بحرزم» بالحاء المهملة. ولم يذكرها ياقوت في (معجم البلدان).

(٢) في البار..ية: «البارعية».

(٣) في (أ): «سلوك الطرق إلا بجماعة».

(٤) في (أ): «دينار اقجا مصارفه».

(٥) في الباريسية «شخان»، ولم يذكرها ياقوت في (معجم البلدان).

فرحل ولد العادل عن ماردين[١].

ذكر وفاة غياث الدّين ملك الغُور وشيء من سيرته

في هذه السنة، في جُمادى الأولى، تُوفّي غياث الدّين أبو الفتح محمّد بن سام الغُوريّ، صاحب غَزنة وبعض خُراسان وغيرها، وأُخفيت وفاته، وكان أخوه شهاب الدّين بطوس، عازماً على قصد خُوارزم شاه، فأتاه الخبر بوفاة أخيه، فسار إلى هَرَاة، فلمّا وصل إليها جلس للعزاء بأخيه في رجب، وأُظهرت وفاته حينئذٍ.

وخلف غياث الدّين من الولد ابناً اسمه محمود، لُقّب بعد موت أبيه غياث الدّين، وسنورد من أخباره كثيراً.

ولمّا سار شهاب الدّين من طوس استخلف بمرو الأمير محمّد بن جربك، فسار إليه جماعة من الأمراء الخُوارزميّة، فخرج إليهم محمّد ليلاً، وبيّتهم، فلم ينج منهم إلاّ القليل، وأنفذ الأسرى والرؤوس إلى هَرَاة، فأمر شهاب الدّين بالاستعداد لقصد خُوارزم على طريق الرمل، وجهّز خُوارزم شاه جيشاً وسيّرهم مع برفور[٢] التركيّ إلى قتال محمّد بن جربك، فسمع بهم، فخرج إليهم، ولقيهم على عشرة فراسخ من مرو، فاقتتلوا قتالاً شديداً، قُتل بين الفريقين خلق كثير، وانهزم الغوريّة ودخل محمّد بن جربك مرو في عشرة فرسان، وجاء الخُوارزميّون فحصروه خمسة عشر يوماً، فضعُف عن الحفظ، فأرسل في طلب الأمان، فحلفوا له إن خرج إليهم على حكمهم أنّهم لا يقتلونه، فخرج إليهم، فقتلوه، وأخذوا كلّ ما معه.

وسمع شهاب الدّين الخبر، فعظُم عليه، وتردّدت الرسل بينه وبين خُوارزم شاه، فلم يستقرّ الصلح، وأراد العَود إلى غزنة، فاستعمل على هَرَاة ابن أخيه ألب غازي، وفَلَك[٣] المُلْك علاء الدّين محمّد بن أبي عليّ الغوريّ (على مدينة فِيروزكوه)[٤]، وجعل إليه حرب خُراسان وأمر كلّ ما يتعلّق بالمملكة، وأتاه محمود ابن أخيه غياث

---

(١) أنظر عن (العادل وماردين) في: مفرّج الكروب ٣/١٣٩، وتاريخ مختصر الدول ٢٢٦، والجامع المختصر لابن الساعي ٩/٩٩، ١٠٠، ونهاية الأرب ٢٩/٣٦، والمختار من تاريخ ابن الجزري ٨٠، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٩٩هـ.) ص ٤٤، وتاريخ ابن الوردي ٢/١٧١، والعسجد المسبوك ٢/٢٧٥، وتاريخ ابن الفرات ج ٤، ق ٢/٢٤٨، ٢٤٩.

(٢) في (أ): «منقور».

(٣) في (أ): «وقلد».

(٤) من (أ) وفيها زيادة: «وبلد الغور».

الدّين، فولّاه مدينة بُست وأَسْفِزار[١]، وتلك الناحية، وجعله بمعزل من المُلك جميعه، ولم يحسن الخلافة عليه بعد أبيه، ولا على غيره من أهله، فمن جملة فعله أنّ غياث الدّين كانت له زوجة كانت مُغنّية، فهويها وتزوّجها، فلمّا مات غياث الدّين قبض[٢] عليها وضربها ضرباً مُبرّحاً، وضرب ولدها[٣] غياث الدّين، وزوج أختها، وأخذ أموالهم وأملاكهم وسيّرهم إلى بلد الهند، فكانوا في أقبح صورة، وكانت قد بنَتْ مدرسة، ودفنت فيها أباها وأمّها وأخاها[٤]، فهدمها، ونبش قبور الموتى، ورمى بعظامهم منها.

وأمّا سيرة غياث الدّين وأخلاقه، فإنّه كان مُظفَّراً منصوراً في حروبه، لم تنهزم له رايةٌ قطّ، وكان قليل المباشرة للحروب، وإنّما كان له دهاء ومكرٌ، وكان جواداً، حسن الاعتقاد، كثير الصدقات والوقوف بخُراسان، بنى المساجد والمدارس بخُراسان لأصحاب الشافعيّ، وبنى الخانكاهات[٥] في الطرق، وأسقط المكوس، ولم يتعرّض إلى مال أحدٍ من الناس، ومَن مات [ولا وارث له تصدّق بما يخلفه، ومن كان من بلد معروف ومات] ببلده يسلّم ماله إلى أهل بلده من التجّار، فإن لم يجد أحداً، يسلّمه إلى القاضي، ويختم عليه إلى أن يصل من يأخذه بمقتضى الشرع.

وكان إذا وصل إلى بلدٍ عمّ إحسانُه أهلَه والفقهاءَ وأهلَ الفضل، يخلع عليهم، ويفرض لهم الأعطيات كلّ سنة من خزانته، ويفرّق الأموال في الفقراء؛ وكان يراعي كلّ مَن وصل إلى حضرته من العلويّين والشُعراء وغيرهم، وكان فيه فضل غزير، وأدب مع حُسن خطّ وبلاغة؛ وكان، رحمه الله، ينسخ المصاحف بخطّه ويقفها في المدارس التي بناها، ولم يظهر منه تعصّبٌ على مذهب، ويقول: التعصّب في المذاهب من الملك قبيحٌ، إلاّ أنّه كان شافعيّ المذهب، فهو يميل إلى الشافعيّة من غير أن يُطْمعهم في غيرهم، ولا أعطاهم ما ليس لهم[٦].

---

(١) في طبعة صادر ١٢/١٨١ «اسفرار» براءين مهملتين، والتصحيح من الباريسية، ومعجم البلدان ١/١٧٨ حيث قيّدها بفتح الهمزة، وسكون السين، والفاء تُضم وتُكسَر، وزاي، وألِف، وراء.

(٢) في (أ): «فلما مات غياث الدين أخذها شهاب الدين وقبض».

(٣) في (أ): «ولدها ربيب».

(٤) في الأوربية: «وأخاهم».

(٥) في (أ): «الخانات».

(٦) أنظر عن (غياث الدين) في: تاريخ الإسلام (حوادث ٥٩٩هـ.) ص ٤٥ و (وَفَيات ٥٩٩هـ.) وفيه =

ذكر أخذ الظاهر قلعة نجم من أخيه الأفضل

في هذه السنة أخذ الظاهر غازي قلعة نجم من أخيه الأفضل، وكانت في جملة ما أخذ من العادل لمّا صالحه سنة سبْعٍ وتسعين [وخمسمائة]، فلمّا كان هذه السنة أخذ العادل من الأفضل سَروج، وحمَلِين، ورأس عين، وبقي بيده سُمَيساط، وقلعة نَجم، فأرسل الظاهر إليه يطلب منه قلعة نجم، وضمن له أنّه يشفع إلى عمّه العادل في إعادة ما أخذ منه، فلم يُعْطه، فتهدّده بأن يكون إلباً عليه[1]؛ ولم تزل الرسل تتردّد حتّى سلّمها إليه في شعبان، وطلب منه أن يعوّضه قُرًى أو مالاً، فلم يفعل، وكان هذا من أقبح ما سُمع عن ملك يزاحم أخاه في مثل قلعة نجم مع خسّتها[2] وحقارتها، وكثرة بلاده وعدمها لأخيه.

وأمّا العادل، فإنّه لمّا أخذ سَروج ورأس عين من الأفضل أرسل والدتَه إليه لتسأل في ردّهما، فلم يشفّعها وردّها خائبة، ولقد عوقب البيت الصلاحيّ بما فعله أبوهم مع البيت الأتابكّي، فإنّه لمّا قصد حصار الموصل سنة ثمانين وخمسمائة أرسل صاحب الموصل والدته وابنة عمّه نور الدّين إليه يسألانه أن يعود، فلم يشفّعهما، فجرى لأولاده هذا، ورُدّت زوجتُه خائبة، كما فعل.

ولمّا رأى الأفضل عمّه وأخاه قد أخذا ما كان بيده أرسل إلى ركن الدّين سليمان بن قلج أرسلان، صاحب مَلَطْية وقونية، وما بينهما من البلاد، يبذل له الطاعة، وأن يكون في خدمته، ويخطب له ببلده، ويضرب السكّة باسمه، فأجابه ركن الدّين إلى ذلك، وأرسل له خِلعة، فلبسها الأفضل، وخطب له بسُمَيساط في سنة ستّمائة وصار في جملته[3].

ذكر مُلك الكُرْج مدينة دُوين[4]

في هذه السنة استولى الكُرْج على مدينة دُوين، من أذربيجان، ونهبوها، واستباحوها، وأكثروا القتل في أهلها؛ وكانت هي وجميع بلاد أذربيجان للأمير أبي

= حشدت مصادر ترجمته.

(١) في (أ) زيادة: «مع العادل».

(٢) في (أ): «بخستها».

(٣) مفرّج الكروب ٣/ ١٥٠ ـ ١٥٣.

(٤) العنوان من (أ).

بكر بن البهلوان، وكان على عادته مشغولاً بالشرب ليلاً ونهاراً، لا يفيق، ولا يصحو، ولا ينظر في أمر مملكته ورعيّته وجُنده، قد ألقى الجميع عن قلبه، وسلك طريق مَن ليس له علاقة؛ وكان أهل تلك البلاد قد أكثرت الاستغاثة به، وإعلامه بقصد الكُرج بلادهم بالغارة مرّة بعد أخرى، فكأنّهم ينادون صخرة صمّاء؛ فلمّا حصر الكُرج، هذه السنة، مدينة دُوين، سار منهم جماعة يستغيثون، فلم يُغثهم وخوّفه جماعة من أمرائه عاقبة إهماله وتوانيه وإصراره على ما هو فيه فلم يصْغ إليهم؛ فلمّا طار الأمر على أهلها ضعفوا، وعجزوا، وأخذهم الكُرج عَنوةً بالسيف، وفعلوا ما ذكرنا.

ثمّ إنّ الكُرج بعد أن استقرّ أمرهم بها أحسنوا إلى مَن بقي من أهلها، فالله تعالى ينظر إلى المسلمين، ويسهّل لثغورهم مَن يحفظها ويحميها، فإنّها مستباحة، لا سيّما هذه الناحية، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، فلقد بلغنا من فعل الكُرج بأهل دُوين من القتْل والسبيْ والأمر ما تقشعرّ منه الجلود.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة أحضر الملك العادل محمّداً ولد العزيز صاحب مصر إلى الرُّها، وسبب ذلك أنّه لمّا قطع خُطبته من مصر سنة ستّ وتسعين [وخمسمائة]، كما ذكرناه، خاف شيعة أبيه أن يجتمعوا عليه، ويصير له معهم فتنة، فأخرجه سنة ثمانٍ وتسعين إلى دمشق، ثمّ نقله هذه السنة إلى الرُّها، فأقام بها ومعه جميع إخوته وأخواته ووالدته ومَن يخصّه.

[الوَفَيَات]

وفيها، في رجب، تُوفّي الشيخ وجيه الدّين محمّد بن محمود المَرْوَرُوذيّ، الفقيه الشافعيّ، وهذا الذي كان السبب في أن صار وحيد الدين شافعيّاً.

وفي ربيع الأوّل منها تُوفّي أبو الفتوح عُبيد الله بن أبي المعمّر الفقيه الشافعيّ المعروف بالمُسْتَمْلي ببغداد، وله خطّ حسن.

وفي ربيع الآخر تُوفّيت زمرّد خاتون أمّ الخليفة الناصر لدين الله، وأُخرجت جنازتها ظاهرة، وصلّى الخلق الكثير عليها، ودُفنت في التربة التي بنتْها لنفسها، وكانت كثيرة المعروف.

٦٠٠

ثم دخلت سنة ستمائة

ذكر حصار خُوارزم شاه هراة ثانية

في هذه السنة، أوّل رجب، وصل خُوارزم شاه محمّد إلى مدينة هَرَاة، فحصرها، وبها ألب غازي ابن أخت شهاب الدّين الغُوري ملك غَزْنة، بعد مراسلاتٍ جرت بينه وبين شهاب الدّين في الصلح، فلم يتمّ. وكان شهاب الدّين قد سار عن غَزْنة إلى لَهاوور عازماً على غزو الهند، فأقام خُوارزم شاه على حصار هراة إلى سَلخ شعبان.

وكان القتال دائماً، والقتل بين الفريقَيْن كثيراً، وممّن قُتل رئيس خُراسان، وكان كبير القدر يقيم بمشهد طوس؛ وكان الحسين بن خرميل بكُرزُبان، وهي إقطاعه، فأرسل إلى خُوارزم شاه يقول له: أرسل إليّ عسكراً لنُسلّم إليهم الفِيَلة وخزانة شهاب الدّين؛ فأرسل إليه ألف فارس من أعيان عسكره إلى كُرْزُبان، فخرج عليه هو والحسين بن محمّد المرغنيّ، فقتلوهم إلاّ القليل، فبلغ الخبر إلى خُوارزم شاه، فسُقط في يده وندم على إنفاذ العسكر، وأرسل إلى ألب غازي يطلب منه أن يخرج إليه من البلد ويخدمه خدمة سلطانيّة ليرحل عنه، فلم يُجِبه إلى ذلك، فاتّفق أن ألب غازي مرض واشتدّ مرضه، فخاف أن يشتغل بمرضه فيملك خُوارزم شاه البلد، فأجاب إلى ما طلب منه، واستحلفه على الصلح، وأهدى له هديّة جليلة، وخرج من البلد ليخدمه، فسقط إلى الأرض ميّتاً، ولم يشعر أحدٌ بذلك، وارتحل خُوارزم شاه عن البلد وأحرق المجانيق وسار إلى سَرْخَس فأقام بها[1].

---

(١) نهاية الأرب ٢٧/ ٢١٢.

ذكر عَود شهاب الدّين من الهند وحصره خُوارزم وانهزامه من الخطا

في هذه السنة، في رمضان، عاد شهاب الدّين الغوريّ إلى خُراسان من قصد الهند؛ وسبب ذلك أنّه بلغه حصر خُوارزم شاه هَرَاة، وموت ألب غازي نائبه بها، فعاد حنِقاً على خُوارزم شاه، فلمّا بلغ مِيْمَنْد عدل على طريق أخرى قاصداً إلى خُوارزم، فأرسل إليه خُوارزم شاه يقول له: ارجع إليّ لأحاربك، وإلاّ سرْتُ إلى هراة، ومنها إلى غزنة.

وكان خُوارزم شاه قد سار من سَرْخَس إلى مَرْوَ، فأقام بظاهرها، فأعاد إليه شهاب الدّين جوابه: لعلّك تنهزم كما فعلتَ تلك الدّفعة، ولكنّ خُوارزم تجمعنا؛ ففرّق خُوارزم شاه عساكره، وأحرق ما جمعه من العلف، ورحل يسابق شهاب الدّين إلى خُوارزم، فسبقه إليها، فقطع الطريق، وأجرى المياه فيها، فتعذّر على شهاب الدّين سلوكها، وأقام أربعين يوماً يصلحها حتّى أمكنه الوصول إلى خُوارزم، والتقى العسكران بسُوقَرا[1]، ومعناه الماء الأسود، فجرى بينهم قتال شديد كثُر القتلى فيه بين الفريقَيْن، وممّن قُتل من الغوريّة الحسين المرغنيّ وغيره، وأُسر جماعة من الخُوارزميّة، فأمر شهاب الدّين بقتلهم فقُتلوا.

وأرسل خُوارزم شاه إلى الأتراك الخطا يستنجدهم، وهم حينئذٍ أصحاب ما وراء النهر، فاستعدّوا، وساروا إلى بلاد الغوريّة، فلمّا بلغ شهاب الدّين ذلك عاد عن خُوارزم، فلقي أوائلهم في صحراء أَنْدَخُوي أوّل صفر سنة إحدى وستّمائة، فقتل فيهم وأسر كثيراً، فلمّا كان اليوم الثاني دهمه من الخطا ما لا طاقة له بهم، فانهزم المسلمون هزيمة قبيحة، وكان أوّل من انهزم الحسينُ بن خرميل صاحب طالقان وتبعه الناس وبقي شهاب الدّين في نفرٍ يسير، وقتل بيده أربعة أفيال لأنّها أَعْيَت، وأخذ الكُفّار فيلَيْن، ودخل شهاب الدّين أَنْدَخُوي فيمَن معه، وحصره الكفّار، ثمّ صالحوه على أن يُعطيهم فيلاً آخر، ففعل، وخلص.

ووقع الخبر في جميع بلاده بأنّه قد عُدِم، وكثُرت الأراجيف بذلك، ثمّ وصل إلى الطالقان في سبعة نفر، وقد قُتل أكثر عسكره، ونُهبت خزائنه جميعها، فلم يبق منها شيء، فأخرج له الحسين بن خرميل، صاحب الطالقان، خياماً وجميع ما يحتاج

---

(١) في (أ): «بسوى قرا»، والمثبت يتفق مع: نهاية الأرب ٢٧/٢١٣.

إليه، وسار إلى غزنة، وأخذ معه الحسين بن خرميل، لأنّه قيل له عنه إنّه شديد الخوف لانهزامه، وإنّه قال: إذا سار السلطان هربتُ إلى خُوارزم شاه؛ فأخذه معه، وجعله أمير حاجب.

ولمّا وقع الخبر بقتله جمع تاج الدّين ألْدِز، وهو مملوك اشتراه شهاب الدّين، أصحابه وقصد قلعة غزنة ليصعد إليها، فمنعه مُستحفِظُها، فعاد إلى داره فأقام بها، وأفسد الخلج وسائر المفسدين في البلاد، وقطعوا الطرق، وقتلوا كثيراً، فلمّا عاد شهاب الدّين إلى غزنة بلغه ما فعله ألْدِز، فأراد قتله، فشفع فيه سائر المماليك، فأطلقه، ثمّ اعتذر، وسار شهاب الدّين في البلاد، فقتل من المفسدين من تلك الأمم نفراً كثيراً.

وكان له أيضاً مملوك آخر اسمه أيبك بال تر[1]، فسلم من المعركة، ولحِق بالهند، ودخل المُوْلتان، وقتل نائب السلطان بها، وملك البلد، وأخذ الأموال السلطانيّة، وأساء السيرة في الرعيّة، وأخذ أموالهم، وقال: قُتل السلطان، وأنا السلطان؛ وكان يحمله على ذلك، ويُحسّنه له إنسان اسمه عمر بن يزان[2]، وكان زنديقاً، ففعل ما أمره، وجمع المفسدين، وأخذ الأموال، فأخاف الطريق، فبلغ خبره إلى شهاب الدّين فسار إلى الهند، وأرسل إليه عسكراً، فأخذوه ومعه عمر بن [يزان] فقتلهما أقبح قتلة، وقتل مَن وافقهما، في جُمادى الآخرة من سنة إحدى وستّمائة؛ ولمّا رآهم قتلى قرأ ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا**﴾ الآية[3]، وأمر شهاب الدّين فنودي في جميع بلاده بالتجهّز لقتال الخطا وغزوهم والأخذ بثأرهم.

وقيل: كان سبب انهزامه أنّه لمّا عاد إلى الخطا من خُوارزم فرّق عسكره في المفازة التي في طريقه لقلّة الماء، وكان الخطا قد نزلوا على طريق المفازة، فكلّما خرج من أصحابه طائفة فتكوا فيهم بالقتل والأسر، ومَن سلم من عسكره انهزم نحو البلاد، ولم يرجع إليه أحد يُعلم الحال، وجاء شهاب الدّين في ساقة العسكر في عشرين ألف فارس ولم يَعلم الحال، فلمّا خرج من البرّيّة لقيه الخطا مستريحين، وهو

---

(١) في الباريسية: «باك بر».

(٢) في الباريسية: «بران».

(٣) سورة المائدة، الآية ٣٣.

ومَن معه قد تعِبوا وأَعْيوا، وكان الخطا أضعاف أصحابه، فقاتلهم عامّة نهاره، وحمى نفسه منهم، وحصروه في أَنْدَخُوي، فجرى بينهم في عدّة أيّام أربعة عشر مصافّاً منها مصافّ واحد كان من العصر إلى الغد بُكرة، ثمّ إنّه بعد ذلك سيّر طائفة من عسكره[1] ليلاً سرّاً، وأمرهم أن يرجعوا إليه بُكرة كأنّهم قد أتوه مدداً من بلاده، فلمّا فعلوا ذلك خافه الخطا، وقال لهم صاحب سَمَرْقَند، وكان مسلماً، وهو في طاعة الخطا، وقد خاف على الإسلام والمسلمين إنْ هم ظفروا بشهاب الدّين، فقال لهم: إنّ هذا الرجل لا تجدونه قطّ أضعف منه لمّا خرج من المفازة، ومع ضعفه وتعبه وقلّة مَن معه لم نظفر به، والأمداد أتته، وكأنّكم بعساكره وقد أقبلت من كلّ طريق، وحينئذٍ نطلب الخلاص منه فلا نقدر عليه، والرأي لنا الصلح معه؛ فأجابوا إلى ذلك، فأرسلوا إليه في الصلح.

وكان صاحب سَمَرْقَند قد أرسل إليه وعرّفه الحال سرّاً، وأمره بإظهار الامتناع من الصلح أوّلاً والإجابة إليه أخيراً؛ فلمّا أتته الرسل امتنع، وأظهر القوّة بانتظار الأمداد، وطال الكلام، فاصطلحوا على أنّ الخطا لا يعبرون النهر إلى بلاده، ولا هو يعبره إلى بلادهم، ورجعوا عنه، وخلص هو وعاد إلى بلاده، والباقي نحو ما تقدّم[2].

ذكر قتل طائفة من الإسماعيليّة بخُراسان

في هذه السنة وصل رسول إلى شهاب الدّين الغوريّ من عند مقدّم الإسماعيليّة بخُراسان برسالة أنكرها، فأمر علاء الدّين محمّد بن أبي عليّ متولّي بلاد الغور بالمسير في عساكر إليهم ومحاصرة بلادهم، فسار في عساكر كثيرة إلى قُهِستان، وسمع به صاحب زوْزَن، فقصده وصار معه وفارق خدمة خُوارزم شاه، ونزل علاء الدّين على مدينة قاين، وهي للإسماعيليّة، وحصرها، وضيّق على أهلها، ووصل خبر قتل شهاب الدّين، على ما نذكره، فصالح أهلها على ستّين ألف دينار ركنيّة، ورحل عنهم، وقصد حصن كاخك فأخذه وقتل المقاتلة، وسبى الذُرّيّة، ورحل إلى هَرَاة ومنها[3] [إلى][4] فِيروزكوه.

---

(١) في الأوروبية: «عسكر».

(٢) نهاية الأرب ٢٧/ ٢١٢، ٢١٣.

(٣) في الباريسية: «وفيها».

(٤) من الباريسية.

ذكر مُلك القسطنطينيّة من الروم

في هذه السنة، في شعبان، ملك الفرنج مدينة القسطنطينيّة من الروم، وأزالوا مُلك الروم عنها، وكان سبب ذلك أنّ ملك الروم بها تزوّج أخت ملك إفرنسيس، وهو من أكبر ملوك الفرنج، فرُزق منها ولداً ذَكَراً، ثمّ وثب على الملك أخٌ له، فقبض عليه، وملك البلد منه، وسمل عينَيْه، وسجنه، فهرب ولده ومضى إلى خاله مستنصراً به على عمّه، فاتّفق ذلك وقد اجتمع كثير من الفرنج ليخرجوا إلى بلاد الشام لاستنقاذ البيت المقدّس من المسلمين، فأخذوا ولد الملك معهم، وجعلوا طريقهم على القسطنطينيّة قصداً لإصلاح الحال بينه وبين عمّه، ولم يكن له طمع في سوى ذلك، فلمّا وصلوا خرج عمّه في عساكر الروم محارباً لهم، فوقع القتال بينهم في رجب سنة تسع وتسعين وخمسمائة، فانهزمت الروم، ودخلوا البلد، فدخله الفرنج معهم، فهرب ملكُ الروم إلى أطراف البلاد، وقيل إنّ ملك الروم لم يقاتل الفرنج بظاهر البلد، وإنّما حصروه فيها.

وكان بالقسطنطينيّة من الروم مَن يريد للمصبيّ، فألقوا النار في البلد، فاشتغل الناس بذلك، ففتحوا باباً من أبواب المدينة، فدخلها الفرَنْج، وخرج ملكها هارباً، وجعل الفرنج المُلك في ذلك الصبيّ، وليس له من الحكم شيء، وأخرجوا أباه من السجن، إنّما الفرنج هم الحُكّام في البلد، فثقّلوا الوطأة على أهله، وطلبوا منهم أموالاً عجزوا عنها، وأخذوا أموال البيَع وما فيها من ذهب ونَقْرة وغير ذلك حتّى ما على الصلبان، وما هو على صورة المسيح، عليه السّلام، والحواريّين، وما على الأناجيل من ذلك أيضاً، فعظُم ذلك على الروم، وحملوا منه خَطْباً عظيماً، فعمدوا إلى ذلك الصبيّ الملك فقتلوه، وأخرجوا الفرنج من البلد، وأغلقوا الأبواب، وكان ذلك في جُمادى الأولى سنة ستّمائة فأقام الفرنج بظاهره محاصرين للروم، وقاتلوهم، ولازموا قتالهم ليلاً ونهاراً، وكان الروم قد ضعُفوا ضعفاً كثيراً، فأرسلوا إلى السلطان ركن الدّين سليمان بن قلج أرسلان، صاحب قونية وغيرها من البلاد، يستنجدونه، فلم يجد إلى ذلك سبيلاً.

وكان بالمدينة كثير من الفرنج، مقيمين، يقاربون ثلاثين ألفاً، ولِعِظَم البلد لا يظهر أمرهم، فتواضعوا هم والفرنج الذين بظاهر البلد، ووثبوا فيه، وألقوا النار مرّة ثانية، فاحترق نحو ربع البلد، وفتحوا الأبواب فدخلوها ووضعوا السيف ثلاثة أيّام،

وفتكوا بالروم قتلاً ونهباً، فأصبح الروم كلّهم ما بين قتيل أو فقير لا يملك شيئاً، ودخل جماعة من أعيان الروم الكنيسة العظمى التي تُدْعى صوفيا[1]، فجاء الفرنج إليها، فخرج إليهم جماعة من القِسّيسين والأساقفة والرهبان، بأيديهم الإنجيل والصليب يتوسّلون بهما[2] إلى الفرنج ليُبقوا عليهم، فلم يلتفتوا إليهم، وقتلوهم أجمعين ونهبوا الكنيسة.

وكانوا ثلاثة ملوك: دوقس البنادقة، وهو صاحب المراكب البحريّة، وفي مراكبه ركبوا إلى القسطنطينيّة، وهو شيخ أعْمَى، إذا ركب تُقاد فرسه؛ والآخر يقال له المركيس، وهو مقدّم الإفرنسيس، والآخر يقال له كند أفلند، وهو أكثرهم عدداً، فلمّا استولوا[3] على القسطنطينيّة اقترعوا على الملك، فخرجت القرعة على كند أفلند، فأعدوا القرعة ثانية وثالثة، فخرجت عليه، فملّكوه، والله يؤتي مُلكه من يشاء، وينزعه ممّن يشاء، فلمّا خرجت القرعة عليه ملّكوه عليها وعلى ما يجاورها، وتكون لدُوقس البنادقة الجزائر البحريّة مثل جزيرة إقريطَش وجزيرة رُودُس وغيرهما، ويكون لمركيس الإفرنسيس البلاد التي هي شرقيّ الخليج مثل أزنيق ولاذِيق، فلم يحصل لأحد منهم شيء غير الذي أخذ القسطنطينيّة، وأمّا الباقي فلم يَسلم مَن به من الروم. وأمّا البلاد التي كانت لملك القسطنطينيّة، شرقيّ الخليج، المجاورة لبلاد ركن الدّين سليمان بن قلج أرسلان، ومن جملتها أزنيق ولاذِيق، فإنّها تغلّب عليها بطريق كبير من بطارقة الروم، اسمه لشكري، وهي بيده إلى الآن[4].

ذكر انهزام نور الدّين، صاحب الموصل، من العساكر العادليّة

في هذه السنة، في العشرين من شوّال، انهزم نور الدّين أرسلان شاه، صاحب الموصل، من العساكر العادليّة، وسبب ذلك أن نور الدّين كان بينه وبين عمّه قُطب الدّين محمّد بن زنكي، صاحب سنجار، وحشة مستحكمة أوّلاً ثمّ اتّفقا، وسار معه

---

(١) في الأوربية: «تدعا سوفيا».
(٢) في الأوربية: «بها».
(٣) في الأوربية: «استولى».
(٤) مفرّج الكروب ٣/ ١٦٠، المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٠٥، دول الإسلام ٢/ ١٠٨، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٠٠هـ) ص ٤٩، تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٢٢، البداية والنهاية ١٣/ ٣٦، ٣٧، تاريخ الزمان ٢٤١، تاريخ مختصر الدول ٢٢٧، ٢٢٨، السلوك ج ١، ق ١/ ١٦٣، تاريخ ابن سباط ١/ ٢٣٦.

إلى ميّافارقين سنة خمسٍ وتسعين [وخمسمائة]، وقد ذكرناه، فلمّا كان الآن أرسل الملك العادل أبو بكر بن أيّوب، صاحب مصر ودمشق وبلاد الجزيرة، إلى قطب الدّين، واستماله، فمال إليه، وخطب له، فلمّا سمع نور الدّين ذلك سار إلى مدينة نصِيبين، سلْخ شعبان، وهي لقطب الدّين، فحصرها، وملك المدينة، وبقيت القلعة فحصرها عدّة أيّام، فبينما هو يحاصرها وقد أشرف على أن يتسلّمها أتاه الخبر أنّ مظفّر الدّين دوكبري بن زين الدّين عليّ، صاحب إربل، قد قصد أعمال الموصل، فنهب نِينوى، وأحرق غلاتها، فلمّا بلغه ذلك من نائبه المرتّب بالموصل يحفظها، سار عن نصِيبين إلى الموصل على عزم العبور إلى بلد إربل ونهبه جزاء بما فعل صاحبها ببلده، فوصل إلى مدينة بَلَد، وعاد مظُفَّر الدّين إلى بلده، وتحقّق نور الدّين أنّ الذي قيل له وقع فيه زيادة، فسار إلى تلّ أعفَر من بَلَد وحصرها، وأخذها ورتّب أمورها، وأقام عليها سبعة عشر يوماً.

وكان الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل بن أيّوب قد سار من مدينة حَرّان إلى رأس عينٍ نجدة لقطب الدّين، صاحب سنجار ونصِيبين، وقد اتّفق هو ومظفّر الدّين، صاحب إربل، وصاحب الحصن وآمد، وصاحب جزيرة ابن عمر، وغيرهم، على ذلك، وعلى منع نور الدّين من أخذ شيء من بلاده، وكلّهم خائفون منه، ولم يمكنهم الاجتماع وهو على نصِيبين، فلمّا فارقها نور الدّين سار الأشرف إليها، وأتاه صاحب الحصن، وصاحب الجزيرة، وصاحب دارا، وساروا عن نصِيبين نحو بلد البَقعا قريباً من بُوشرى[1]، وسار نور الدّين من تلّ أعفَر إلى كَفَر زَمّار، وعزم على المطاولة ليتفرّقوا، فأتاه كتاب من بعض مماليكه، يُسمّى جرديك[2]، وقد أرسله يتجسّس أخبارهم، فيقلّلهم في عينه، ويُطْمعه فيهم، ويقول: إن أذِنْت لي لقيتهم بمفردي[3]؛ فسار حينئذٍ نور الدّين إلى بُوشرى[1] فوصل إليها من الغد الظهر وقد تعبت دوابّه وأصحابه، ولقوا شدّةً من الحرّ، فنزل بالقرب منهم أقلّ من ساعة.

وأتاه الخبر أنّ عساكر الخصم قد ركبوا، فركب هو وأصحابه، وساروا نحوهم، فلم يروا لهم أثراً، فعاد إلى خيامه، ونزل هو وعساكره، وتفرّق كثير منهم في القرى

---

(١) في الباريسية: «بو شزى».

(٢) في الباريسية: «خرديك».

(٣) في الباريسية: «بحفر دمي».

لتحصيل العلوفات وما يحتاجون إليه، فجاءه مَن أخبره بحركة الخصم وقصده، فركب نور الدّين وعسكره، وتقدّموا إليهم، وبينهم نحو فرسخَيْن، فنزلوا وقد ازداد تعبهم، والخصم مستريح، فالتقوا، واقتتلوا، فلم تطُل الحرب بينهم حتّى انهزم عسكر نور الدّين، وانهزم هو أيضاً، وطلب الموصل، فوصل إليها في أربعة أنفس، وتلاحق الناس، وأتى الأشرف ومَن معه، فنزلوا في كفَر زَمّار، ونهبوا البلاد نهباً عظيماً، وأهلكوا ما لم يصلح لهم لا سيّما مدينة بَلَدَ فإنّهم أفحشوا في نهبها.

ومن أعجب ما سمعنا أنّ امرأة كانت تطبخ، فرأت [النهب][1]، فألقت سوارَيْن كانا في يديها في النار وهربت، فجاء بعض الجُند ونهب ما في البيت، فرأى فيه بيضاً، فأخذه وجعله في النار ليأكله، فحرّكها، فرأى السوارَيْن فيها فأخذهما.

وطال مُقامهم والرسل تتردّد في الصلح، فوقف الأمر على إعادة تلّ أعفَر، ويكون الصلح على القاعدة الأولى[2]، وتوقّف نور الدّين في إعادة تلّ أعفَر، فلمّا طال الأمر سلّمها إليهم، واصطلحوا أوائل سنة إحدى وستّمائة، وتفرّقت العساكر من البلاد[3].

ذكر خروج الفرنج بالشام إلى بلد الإسلام والصلح معهم

في هذه السنة خرج كثير من الفرنج في البحر إلى الشام، وسهل الأمر عليهم بذلك لملكهم قسطنطينيّة، وأرسوا بعكّا، وعزموا على قصد البيت المقدّس، حرسه[4] الله، واستنقاذه من المسلمين، فلمّا استراحوا بعكّا ساروا فنهبوا كثيراً من بلاد الإسلام بنواحي الأردنّ، وسبوا، وفتكوا في المسلمين.

وكان الملك العادل بدمشق، فأرسل في جمع العساكر من بلاد الشام ومصر، وسار فنزل عند الطّور بالقرب من عكّا، لمنع الفرنج من قصد بلاد الإسلام، ونزل الفرنج بمرج عكّا، وأغاروا على كَفَركَنّا، فأخذوا كلّ مَن بها وأموالهم، والأمراء يحثّون العادل على قصد بلادهم ونهبها، فلم يفعل، فبقوا كذلك إلى أن انقضت

---

(١) من الباريسية.

(٢) في الأوربية: «الأوّلة».

(٣) مفرّج الكروب ٣/ ١٥٥ ـ ١٥٩، مرآة الزمان ج ٨، ق ٢/ ٥١٨، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٠٠هـ.) ص ٤٧.

(٤) في الأوربية: «حرسها».

السنة، وذلك سنة إحدى وستّمائة، فاصطلح هو والفرنج على دمشق وأعمالها، وما بيد العادل من الشام، ونزل لهم عن جميع المناصفات في الصيدا والرملة وغيرهما، وأعطاهم ناصرةً وغيرها، وسار نحو الدّيار المصريّة. فقصد الفرنج مدينة حماة، فلقيهم صاحبها ناصر الدّين محمّد بن تقي الدّين عمر بن شاهنشاه بن أيّوب، فقاتلهم، وكان في قلّة، فهزموه وتبِعوه إلى البلد، فخرج العامّة إلى قتالهم، فقتل الفرنج منهم جماعة وعاد الفرنج[1].

ذكر قتل كوكجة ببلاد الجبل

قد ذكرنا قبلُ تغلّب كوكجة مملوك البهلوان على الرَّيّ، وهمذان، وبلد الجبل، وبقي إلى الآن، وكان قد اصطنع مملوكاً آخر كان للبهلوان، اسمه إيدغمش، وقدّمه، وأحسن إليه، ووثق به، فجمع إيدغمش الجموع من المماليك وغيرهم، ثمّ قصد كوكجة، فتصافّا، واقتتل الفريقان، فقُتل كوكجة في الحرب، واستولى إيدغمش على البلاد، وأخذ معه أوزبك بن البهلوان، له اسم الملك، وإيدغمش هو المدبّر له والقيّم بأمر المملكة، وكان شهماً، شجاعاً، ظالماً، وكان كوكجة عادلاً حسن السيرة، رحمه الله.

ذكر وفاة ركن الدين بن قلج أرسلان ومُلك ابنه بعده

وفي هذه السنة، سادس ذي القعدة، تُوفّي ركن الدّين سليمان بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن سلجوق، صاحب ديار الروم، ما بين مَلَطْيَة وقُونِية، وكان موته بمرض القُولَنج في سبعة أيّام، وكان قبل مرضه بخمسة أيّام قد غدر بأخيه صاحب أنكُوريَة، وتُسمّى أيضاً أنقِرَة، وهي مدينة منيعة، وكان مُشاقّاً[2] لركن الدّين، فحصره عدّة سنين حتّى ضعُف وقلّت الأقوات عنده، فأذعن بالتسليم على عوَضٍ يأخذه، فعوّضه قلعة في أطراف بلده وحلف له عليها، فنزل أخوه عن مدينة أنقِرَة، وسلّمها، ومعه ولدان له، فوضع ركن الدّين عليه

---

(١) مفرّج الكروب ٣/١٥٩، المختصر في أخبار البشر ٣/١٠٥، دول الإسلام ٢/١٠٧، ١٠٨، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٠٠هـ.) ص ٤٩، تاريخ ابن الوردي ٢/١٢٢، البداية والنهاية ١٣/١٦، العسجد المسبوك ٢/٢٨٥، تاريخ ابن خلدون ٥/٣٤٠، السلوك ج ١، ق ١/١٦٣، تاريخ ابن سباط ١/٢٣٦.

(٢) في الأوربية: «مشاققاً».

مَن أخذه، وأخذ أولادَه معه، فقتله، فلم يمض غير خمسة أيّام حتّى أصابه القولنج فمات.

واجتمع الناس بعده على ولده قِلج أرسلان، وكان صغيراً، فبقي في المُلك إلى بعض سنة إحدى وستّمائة، وأُخذ منه، على ما نذكره هناك.

وكان ركن الدّين شديداً على الأعداء، قيّماً بأمر المُلك، إلاّ أنّ الناس كانوا ينسبونه إلى فساد الاعتقاد؛ كان يقال إنّه يعتقد أنّ مذهبه مذهب الفلاسفة، وكان كلّ من يُرمى بهذا المذهب يأوي إليه، ولهذه الطائفة منه إحسان كثير، إلاّ أنّه كان عاقلاً يحبّ ستر هذا المذهب لئلاّ ينفر الناس عنه.

حُكي لي عنه أنّه كان عنده إنسان، وكان يُرمى بالزّندقة ومذهب الفلاسفة، وهو قريب منه، فحضر يوماً عنده فقيه، فتناظرا، فأظهر شيئاً من اعتقاد الفلاسفة، فقام الفقيه إليه ولطمه وشتمه بحضرة ركن الدّين، وركن الدّين ساكت، وخرج الفقيه فقال لركن الدّين: يجري عليّ مثل هذا في حضرتك ولا تنكره؟ فقال: لو تكلّمتُ لقُتلنا جميعاً، ولا يمكن إظهار ما تريده أنت؛ ففارقه[١].

ذكر قتل الباطنيّة بواسط

في هذه السنة قُتل الباطنيّة بواسط، وسبب كونهم بها [وقتلهم] أنّه ورد إليها رجل يُعرف بالزَّكَم محمّد بن طالب بن عُصَيّة، وأصله من القاروب[٢]، من قرى واسط، وكان باطنيّاً مُلحداً، ونزل مجاوراً لدور بني الهَرَوي، وغشيه الناس، وكثُر أتباعه.

وكان ممّن يغشاه رجل يُعرف بحسن الصابونيّ، فاتفق أنّه اجتاز بالسُّوَيقَة، فكلّمه رجل نجّارٌ في مذهبهم، فردّ عليه الصابونيّ ردّاً غليظاً، فقام إليه النجّار وقتله، وتسامع الناس بذلك، فوثبوا وقتلوا مَن وجدوا ممّن ينتسب إلى هذا المذهب، وقصدوا دار ابن عُصَيّة وقد اجتمع إليه خلق من أصحابه، وأغلقوا الباب، وصعدوا إلى سطحها، ومنعوا الناس عنهم، فصعدوا إليهم من بعض الدُّور من على السطح، وتحصّن مَن بقي في الدّار بإغلاق الأبواب والممارق، فكسروها، ونزلوا فقتلوا مَن وجدوا في الدّار وأحرقوا، وقُتل ابن عُصيّة، وفُتح الباب، وهرب منهم جماعة فقُتلوا؛

---

(١) أنظرْ عن (ركن الدين بن قلج أرسلان) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٦٠٠هـ).

(٢) في الباريسية: «القاروث».

وبلغ الخبر إلى بغداد، وانحدر فخر الدّين أبو البدر بن أمسينا الواسطيّ لإصلاح الحال، وتسكين الفتنة[1].

ذكر استيلاء محمود على مرباط وغيرها من حَضْرَمَوْتَ

في هذه السنة استولى إنسانٌ اسمه محمود بن محمّد الحِمْيَرِيّ على مدينة مِرباطَ وظَفَار وغيرهما من حَضْرَمَوْتَ، وإنّ ابتداء أمره أنّه له مركب يكريه في البحر للتّجار، ثم وزَر لصاحب مِرباطَ، وفيه كرم وشجاعة وحُسن سيرة، فلمّا تُوفّي صاحب مِرباط ملك المدينة بعده، وأطاعه الناس محبّةً له لكرمه وسيرته، ودامت أيّامه بها؛ فلمّا كان سنة تسع عشرة وستّمائة خرب مِرباطَ وظَفَار، وبنى مدينة جديدة على ساحل البحر بالقرب من مِرباط، وعندها عين عذبة كبيرة أجراها إلى المدينة، وعمل عليها سوراً وخندقاً، وحصّنها وسمّاها الأحمديّةَ، وكان يحبّ الشِعر، ويُكثر الجائزة عليه.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة خرج أسطول من الفرنج إلى الدّيار المصريّة، فنهبوا مدينة فُوَّةَ، وأقاموا خمسة أيّام يَسْبُون وينهبون، وعساكر مصر مقابلهم، بينهم النيل، ليس لهم وصول إليهم لأنّهم لم تكن لهم سفنٌ[2].

وفيها كانت زلزلة عظيمة عمّت أكثر البلاد مصر، والشام، والجزيرة، وبلاد الروم، وصَقَلّية، وقُبرس، ووصلت إلى الموصل والعراق وغيرهما، وخرّب من مدينة صور سورها وأثّرت في كثير من الشام.

وفيها، في رجب، اجتمع جماعة من الصوفيّة برباط شيخ الشيوخ ببغداد وفيها صوفيّ اسمه أحمد بن ابراهيم الدّاريّ من أصحاب شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسمعيل، رحمهم الله، ومعهم مُغنّ يغنّي ويقول الشعر:

عُوَيذلتي أقصِري ... كفَى بمشيبي عَذَلْ

شبابٌ كأنْ لم يكن ... وشيبٌ كأن لم يزلْ

---

(١) تاريخ الإسلام (حوادث ٦٠٠هـ.) ص ٤٩.

(٢) مفرّج الكروب ٣/١٦١، تاريخ الزمان ٢٤٣، ذيل الروضتين ٥٠، المختصر في أخبار البشر ٣/١٠٦، الدرّ المطلوب ١٥٥، دول الإسلام ٣/١٠٧، المختار من تاريخ ابن الجزري ٨٨، تاريخ الإسلام (حوادث ٦٠٠هـ.) ص ٤٨، العبر ٥/٣١١، تاريخ ابن الوردي ٢/١٢٢، مرآة الجنان ٣/٤٩٨ وفيه «قوّة» بالقاف، وهو تحريف، السلوك ج ١، ق ١/١٦٣، تاريخ ابن سباط ١/٢٣٦.

وحــقّ ليــالــي الــوصــالِ أواخِــــرِهـــا والأُوَلْ
وصُفــرة لــون المحــبّ عنــدَ استمــاعِ العَــذَلْ
لَئِــن عــاد عَيشــي بكــم حــلا[1] العيش لـي واتّصَلْ

فتحرّك الجماعة، عادة الصوفيّة في السماع، وطرب الشيخ المذكور، وتواجد، ثمّ سقط مَغْشِيّاً عليه، فحرّكوه فإذا[2] هو ميّت، فصُلّي عليه ودُفن، وكان رجلاً صالحاً.

[الوَفَيَات]

وفيها تُوفّي أبو الفتوح أسعد بن محمود العِجْليّ، الفقيه الشافعيّ، بأصفهان في صفر، وكان إماماً فاضلاً.

وفي رمضان منها تُوفّي قاضي هَراة عمدة الدّين الفضل بن محمود بن صاعد السّاويّ، ووليَ بعده ابنه صاعدٌ.

---

(١) في الأوربية: «حلى».

(٢) في الأوربية: «فإذ».